الحب
يأتي مصادفة

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

القاعود ، حلمي محمد
الحب يأتي مصادفة/تأليف: أ.د. حلمي محمد القاعود.
- ط1- القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، 2015.
ص؛ 24 سم.
تدمك: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ 8 85122 977 978
1- ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
أ- العنوان 920

* تـــاريخ الإصـــدار: 1436هـ -2015م
* حقـــوق الطبـــع: محفوظة
* رقـــم الإيـــداع: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟/ 2015م
* الترقـــيم الـــدولى: ISBN: 978 - 977 – 85122 - 8 - 1
* الكـــــــــود: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟/ 2

الوادي للثقافة والإعلام
الإدارة: 42 ش رشدى (برج جوهر) - تليفاكس: 23929878
المكتبة والتسويق: 14 أ ش الجمهورية - عابدين – ت:23912420
ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
E-mail: alwady.c.m@gmail.com
darannshr@hotmail.com

أ. د. حلمي محمد القاعود

الحب
يأتي مصادفة


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الرجال الذين قهروا الهزيمة والخوف ..
إلى الذين قطرت دماؤهم شهادة لله وقربانا ..
إلى الذين ينتظرون لحماية المستقبل وبناء الغد ..
أهدى إليهم أوراق الفتى (حامد الشيمي)



كلمة ...

أعترف أنني لم أكتب حرفًا واحدًا في هذه الرواية؛ فلم تكن كتابة القصة مجال إبداعي الذي أحب، لعله المسرح تركزت فيه خلاصة حبي للإبداع واللعب بالكلمات والشخصيات .. وأسباب ذلك متعددة، أهمها أني أحب الاقتصاد في الكلام والوقت، ولا أقدر – في الوقت نفسه – على الجلوس ساعات طويلة لأكتب قصة أو رواية تزيد قليلا أو كثيرا على حجم مسرحية محدودة الفصول.

وكل ما أستطيع قوله الآن أنني بنشر هذه القصة أفي لصديق عزيز وأخ كريم ورفيق سلاح قديم، بأقل ما يجب، وهو أن ترى كلماته النور، فقد كان يؤثر أن يكتب كلماته ويخبئها بعيدًا عن الضوء .. وكان خجولا جدًّا وحساسًا للغاية، ويمنعه الحياء أن يقول إني كتبت قصة، وها هي أمامكم، ولقد رأيت فيها بعض الملامح الجيدة والمضيئة لأديب لم يمهله القدر حتى ينضج ويشارك بإنتاجه في الحياة الأدبية، ويسهم في رفع الذوق الفني العام ..

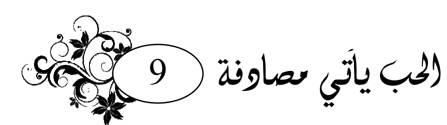
وقد آثرت أن أضع الفصول التي كتبها كما هي دون تعديل .. وشاركني بعض الأصدقاء الأدباء في إكمال القصة؛ بحكم علاقتنا المشتركة بمعظم أشخاصها، وبحكم معرفتنا بالحوادث التي تلت رحيل الصديق العزيز راوي القصة ..

حلمي

(1)

تعودت أن أزور القاهرة كل عدة شهور، أطمئن فيها على شقيقي الذي يدرس الهندسة، وأرى بعض أصدقائي من الكتاب وغيرهم، ثم أرجع إلى قريتي أحكي لأمي ما رأيته، وأطمئنها على ابنها، فتسر لذلك وتسعد ..

ولا أنسى طوال عمري ما شهدته في الشتاء الماضي عندما زرت القاهرة وقابلت الأستاذ عامر المنوفي في جمعية الأدباء بشارع قصر العيني .. لم أكن أكرهه، وإن كان حبه لم يتسلل إلى قلبي! لقيته في جمع من الأدباء تحلقوا حول مائدة انضممت إليها، وأخذنا نحتسي الشاي والقهوة، ونتكلم .. ومع أن الكلام هنا مباح إلا في الدين والسياسة، فقد التزمت الصمت تمامًا، ولم أتفوه بكلمة .. ظللت أستمع إليهم، والأستاذ عامر المنوفي يرفع صوته الرفيع، وتتوهج عيناه احمرارًا، وتبين أسنانه الصفراء داخل كهف مظلم، وتتحرك يداه مشيرة إليهم بأوامر قاطعة، تفرض عليهم أن يقبلوا رأيه الذي يعتقده صحيحًا، كأنه يؤيده بأدلة عضلية .. مع شعوري بالتقزز الذي تخلف عن صور المناقشات، خاصة آراء الأستاذ عامر، إلا إنني وجدت أن لا مفر من الإجابة الباسمة عن أسئلتهم، كانوا يعرفون أن كتاباتي قليلة، ويعرفون أني أكتب النقد الأدبي والدراسة الفنية، وقليل منهم يعلم أني أمارس كتابة القصة والمسرحية، وقرض الشعر في بعض الأحيان، كلهم قرءوا لي ما نشرته في العواصم العربية إلا الأستاذ عامر المنوفي، فلم يقرأ لي إلا قليلًا، وأفصح في أكثر من مناسبة أنه يحترم ما أكتب، وقد تعارفنا ذات



ليلة عن طريق صديق حميم تربطه به آصرة عمل ورابطة زمالة .. والأستاذ عامر من النوع الذي يكيل المديح بالقنطار والشتائم بغير حساب، وعرفت ذلك من خلال ما سمعته عن علاقاته بالأدباء وزملائه الكتاب، ولم أدر لماذا استسلمت له في تلك الليلة حتى جرني إلى حوار ساخن ما زال يلسع جوانجي بسياط من لهب، فقد تأكدت من صفات الرجل جيدًا، سألني:

- متى تنتهي من الخدمة العسكرية؟

فأجبته بغير مبالاة:

- لكل شيء أوان.

وهل تنوون دخول الحرب؟

- ....

لم أجب، واكتفيت بابتسامة خفيفة تعبر عن رغبتي في الصمت:

- أعرف أنك تتحمس للقتال مهما كانت النتائج؟

- صحيح.

- ولكن القتال بدون مساندة دولة كبرى يصبح هزيمة مؤكدة!

- ليس دائمًا.

- لا .. بل دائمًا!

كان صوته قد ارتفع أكثر مما ينبغي، واحمر وجهه كعرف الديك، وأحسست بالامتعاض إزاءه، كنت أخشى مناقشته، ليس لأنه أقوى حجة

ومنطقًا، ولأنه لا يقتنع إلا برأيه، ولعلمي أنه مريض بالضغط، وأخاف أن أفحمه، فيحدث له ما لا تحمد عقباه ، حاولت أن أتلطف معه وأحاوره خطوة خطوة، مهيئًا نفسي لتقبل انفعالاته ونتائجها.

سألته بهدوء خافت:

- أي دولة كبرى نستطيع الاعتماد عليها؟

هتف من فوره:

- الروس! الروس!

- ولماذا الروس بالذات؟

- إنهم الدولة الكبرى الوحيدة التي تستطيع أن تساندنا.

ورغم أن الأستاذ عامر ليس ماركسيًّا، فإن أهل اليمين لا يحترمونه، وأهل الوسط يضعونه مع المشاغبين، أما اليساريون فيضعونه في أقصى اليمين الرجعي .. هكذا يتصورونه، ولكنه يتصور نفسه غير ذلك تمامًا، فهو يتصور نفسه تقدميًّا ناضجًا، واشتراكيًّا عريقًا، ووطنيًّا مخلصًا ومدافعًا عظيمًا عن التراث، ليس هذا فحسب، بل إنه يخفي في نفسه شيئًا يستحي أن يجهر به، ولو وجد من يصغي إليه - أديبًا ناشئًا مثلًا - لباح بسره، وأعلنه، وحينئذ تعلو البهجة وجهه وجبينه، ولكنه لا يستطيع؛ لأن الكل مقتنعون بضحالة الجهبذ الكبير - كما كانوا يسمونه - تهكمًا وزراية.

ولست أدري ما الذي جعلني في تلك الليلة أصر على تفهيم الأستاذ عامر المنوفي أن رأيه خطأ، وأن آراء الناس تختلف عن رأيه، وكان أن قلت له:



- ولماذا لا نعتمد على أنفسنا يا أستاذ؟

أعجبته كلمة "أستاذ" .. نفخت غروره، أضافت إلى صوته نبرة المعلم الذي جمع معلومات الدنيا في رأسه المستطيل.

- لا .. لا .. إننا ضعفاء .. ولا يمكننا أن ندخل المعركة بإمكانياتنا الحالية .. صحيح أننا متفوقون عدديًّا، ولكننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا .. شوف يا حامد يا ابني .. هذا أمر مفروغ منه، وعلى جيلكم أن يفهم ذلك جيدًا، عليكم أن توطنوا أنفسكم على الاعتراف بالواقع .. أسمعت عن الأمر الواقع؟ .. لابد أن تفهموا أن الواقع يفرض عليكم أن تستعينوا بدولة كبرى، كما اليهود .. أتفهم يا حامد؟

علا صوته، وانتفخت الأوداج، وأخذت عيناه تسحّ ماء ساخنًا ممزوجة بمشاعر التيه والصلف والأستاذية وحب الذات .. كل هذه المشاعر تجمعت في رأسه المستطيل، فتدور به كما المروحة، فلا يقر على قرار ..

كنت أريد أن أحكي له عن جيلي، وعن وطني، وعن الأسى، وعن المستقبل، ولكني أحسست - رغمًا عني - بالحزن يتسلل إلى داخلي، وشعرت كأن قطرات الدم تتساقط من قلبي بكاء صموتًا لا يكف عن المطر! ..

حاولت أن أخفي مشاعري، ولكن الليل أضواني، فسكبت على شفتي قطرات من الشجاعة المصطنعة في لحظة قهر .. قلت له:

- سيدي .. مع احترامي لك، فإن الأمر الواقع لا يبقى على حاله أبدا، القوة تغيره، والدنيا تتغير، والفرق بين جيلكم وجيلنا كبير .. دهش، وتساءل في استنكار:



- ما هو الفرق؟ قل لي .. اشرح ..
- جيكلم ارتكب خطيئة، وجيلنا يكفر عنها ..

ومددت له يدي قائلًا، وسط الدهشة المتزايدة، والاستنكار الذي تحول إلى غضب: أستأذنك، أشعر برعشة برد ..

ونهضت واقفًا، ولم أستطع تفسير تلك اللحظة التي بدا فيها – مع الغضب – مجاملًا، فقد نهض أيضًا ليحييني ويودعني .. بل راح يطيب خاطري، ويتمنى لي حظًّا سعيدًا، والانتهاء عاجلا من خدمة الميدان!

حاولت أن أرسم ابتسامة أو ظل ابتسامة .. شكرته على مشاعره، سلمت على بقية الجماعة التي لم تشاطره أفكاره، تركتهم على أمل اللقاء، ابتلعني شارع قصر العيني .. تهت فيه .. صرت نقطة في بحره اللجي، ولفحني هواء بارد .. حاولت أن أبصر السماء من خلال الأضواء الباهرة، فلم أجد في وجهها ما ينبئ عن خير، كانت مشبعة بالسحب، مضيت في الشارع الكبير، وصعدت كوبري "التحرير" المعلق، وركبت إلى البيت .. وهناك وضعت رأسي على الوسادة، وتحت جنح الظلام أخذت أستعيد ما قاله الأستاذ عامر المنوفي – الجهبذ الكبير – كلمة كلمة .. ومع كل كلمة أسمع قطرات الدم تتساقط في داخلي كانهمار المطر .. بيد أنني بعد حين رحت في نوم عميق!

***

(2)

في الصباح لم أجد أحدًا بجواري، كلهم خرجوا من البيت وتركوني، ما كان لهم أن ينتظروا حتى أصحو؛ فهم يسعون إلى دنياهم كالعادة، أما أنا فلا شيء أتعوده حتى يتكرر كل يوم .. دنياي محكومة بالعرف وليس بالقانون .. قد أنام عندما يستيقظ الناس، وأصحو عندما ينامون .. وأظل ساهرًا أيامًا، وقد أضحك وأبكي في آن واحد، ولا أدري لماذا .. يسوح بي الخيال إلى بعيد، فأشعر الدنيا "جهنم" مشبوبة اللهب، أو "فردوس" ما بعده فراديس!

أؤكد لكم أنني لست مجنونًا، ولكن حياتي مع العسكر لا تستقر على حال، مع أننا محكومون بالانضباط في كل سلوكنا، بل وأفكارنا أحيانا! .. قد تفسرون ذلك بأنها الغربة في الجبال والصحاري، وقد ترجعون سببه إلى الحياة في مجتمع مذكر لا تدخله امرأة. والحق أقول لكم أنني أختلف عن غيري من الرفاق، فأنا منضبط تلقائيًّا .. قبل أن أدخل الجهادية كنت مشهورًا بين أقراني بالدقة، أدق من ساعة الجامعة، التي تدق في الراديو، كما كانوا يقولون .. ولم يكن المجتمع المذكر بغريب عليَّ، فقد تعود الحياة فيه خلال سني عمري ودراستي .. ومع ذلك، فإن هذا السبب ليس له تأثير كبير عليَّ؛ فقد تجاوزت مرحلة المراهقة بكثير، وهأنذا أدلف إلى قمة العمر نضجًا وشبابًا واتزانًا .. ويوم أدخلوني لجنة الامتحان في الثانوية العامة وسط الفتيات، ضحكت كثيرًا في سري، وعندما انتهت حصة الامتحان

التفففن حولي ورحن يتناقشن معي بدهشة، واستغراب وانبهار .. الحق أنني كنت سعيدًا لوجودهن حولي، وكم تمنيت لو أتزوج وأنا صغير .. ما زالت أمي تذكرني كيف دخلت عليها ذات يوم – وكنت في الخامسة أو السادسة من عمري – وقلت لقد اتفقت مع الحاج عطية أن يزوجني ليلى، وقد وافق هيا لنقيم العرس، يومها امتلأت عينا أمي بالفرحة، وضحك أبي كثيرًا، ووعداني بالفرح، وزفة تحكي عنها الركبان!

قلت للبنات بجرأة: من منكن تتزوجني؟ لم أضحك، كنت صارمًا .. ضحكن وخجلن، ولفهن الحياء قليلًا، ولكنهن عدن إلى الضحك حتى الكركرة .. وكل منهن تشير إلى الأخرى .. صرت صديقًا لهن بعدئذ ورجلهن الحازم .. وعندما كنت أتأخر في دخول اللجنة يسألن المراقب: أين الرجل؟ الرجل تأخر؟ ضع ورقة الإجابة على درجه .. وصرت رجلًا في مملكة النساء!!

لا أستطيع أن أقبل من أحد أن يقول عني – أنا حامد الشيمي – إنني مجنون، فأنا – أقسم لكم – ما كرهت الصحراء، ولا ضايقتني الغربة، بل إن الحياة هنالك أكثر فائدة لصحتي .. الهواء النقي ينعشني، والبعد عن ضجيج العمران يريح ذهني، ويهدئ أعصابي، ولكنهم هنا ما زالوا محكومين بروتين لا يتغير أبدًا .. ذهاب في الصباح إلى العمل، وعودة بعد الظهر، وتناول للغداء، ثم النوم قليلًا، يعقبه صحيان فثرثرة حتى يأتي الليل، مسبوقًا بتناول العشاء .. فالنوم والصحيان ومصارعة الأتوبيسات في الذهاب إلى العمل والعودة منه.

وهكذا كل يوم .. لا جديد .. لا تغيير .. ولكنني يا أحباب لا يمكن أن أعيش كما يعيش الناس في القاهرة .. لقد تشبعت بالحياة جزافًا رغم انضباطنا هنالك.

كان عليَّ أن أصحو، وأرتدي ملابسي، وأذهب إلى شارع القلعة؛ لأزور سيدة طيبة تعرف أمي مذ كانتا طفلتين في دارين متجاورتين بقريتنا، توصيني أمي أن أزورها دائمًا عند وجودي بالقاهرة: (يا حامد لا تنسَ خالتك "حياة" .. امرأة طيبة وأميرة، بنت الأصول .. لا تعيب ولا تعاب، كان زوجها – الله يرحمه – يحب أباك ويعزه .. سلم عليها، وقل لها، كل العائلة تهديها السلام، وتبعث لها بالتحيات والأشواق، واسألها يا حامد متى تشرفنا وتزورنا في البلد؟ .. لها زمان لم تأت منذ مات المرحوم زوجها ...).

تظل أمي توصيني، وأنقل الوصية بحذافيرها .. لا أنكر أني أستريح إلى هذه السيدة .. أجد لديها متنفسًا يرد إليَّ بعض عمري وحياتي .. وأظنكم تعرفون الخالة "حياة" جيدًا .. معظمكم من يعرف القراءة طالع مقالاتها في مجلة "الجهاد الوطني" .. توقع فيها مقالة إسلامية كل شهر باسم "حياة مرعي"، وأحيانًا باسم مستعار "أم مجاهد" .. نادر هو الشهر الذي تخلو فيه المجلة من كلماتها الإسلامية المتحمسة .. تكتب عن شهيرات الإسلام وبطولاتهم في إعزاز يشبه الحب لشخصياتين، ومع ذلك فهي تؤمن بالفن، وتحب الرقص الشرقي!

ذات يوم - ومنذ سنوات - التقيت بزميل لي من العساكر اسمه أشرف الصعيدي، سألته وسألني ..

- من الأرياف .. وأنت؟
- من القاهرة ..
- أين في القاهرة؟
- شارع القلعة.
- أين؟
- رقم 76.

وندت عني صرخة دهشة:

- إذن فأنت تعرف أقارب لنا في نفس المنزل؟
- تعرف من؟

كان يتكلم في هدوء، وأنا مستفز:

- خالتي حياة؟

ضحك أشرف الصعيدي من أعماقه، وشد على يدي:

- إذن فنحن أقارب .. أنت تعرف خالتك حياة .. إنها أمي .. أنت إذن من كفر المحاريم؟
- طبعا .. و .. و..

لم أكن أعرف أن لها أولادًا بلغوا سن الرجولة مثلي إلا هذا اليوم.

ورحت أعد الأقارب والمعارف والجيران لأشرف، ويحكي لي عن التاريخ الذي حفظناه عن الأهل ولم ندرك حوادثه وأبطاله .. عرفت أن أشرف يقيم مع أمه، وله ثلاثة إخوة آخرين، منهم واحد – الأكبر – في الجهادية أيضًا، اسمه حسن. تخرج أشرف في كلية الهندسة بتقدير "مقبول"، إلا أنه يهوى الأدب أيضًا، وكانت العسكرية خير دواء له حتى يأتي دوره في التعيين بالحكومة .. كان قد تقدم بطلب إلى بعض الشركات فلم يقبل طلبه، وعندما سألت أشرف قبل التعرف على أعماقه، لماذا كان ضعيفًا في التقدير؟ كان رده بأنه أديب ويهوى الأدب، وله محاولات في كتابة الشعر ..

لماذا الشعر بالذات ؟ ..

يقول أشرف: هندسة، والهندسة فن قبل أن تكون تخطيطًا ..

في أول يوم التقينا رحبت بأشرف، وأوصيت به زملائي القدامى، وأتيت له بطعام وشراب، وخففت عنه وقع المحنة التي يشعر بها المستجدون في العسكرية، ورفعت روحه المعنوية كثيرًا .. أنسيته كثيرًا من الأشجان الأولى.

ويختلف أشرف عن أمه اختلافًا كبيرًا .. لعله يشبه أباه .. لا أعرف أباه بالطبع؛ فقد مات ونحن صغار .. وليس في أشرف من صفات أمه ما ندركه ببساطة، ولعل المتأمل لملامحه يقول إن أشرف اكتسب منها نضارة البشرة وسخاء الوجه الطيب والأنف الأفطس و ...

وكان عليَّ أن أجلس إلى خالتي "حياة مرعي"، وأحكي لها وصية أمي كما حفظتها، وكما كررتها وأكدتها قبل رحيلي مرارًا ..

استقبلتني بوجه سمح، يكشف عن ريفية عريقة، وطيبة أصيلة:

- سلامات يا حامد .. نورت.

على الفور تذكرت أمي .. كلماتها الحنون أثارت شوقي إلى القرية، أعادتني إلى حارتنا، ورأيت نفسي جالسا على المصطبة أسلم على الغادين والرائحين، وأضحك مع "عم رضوان"، وأقرأ له في الجريدة، وأناقشه في السياسة والحرب والسلام وأسعار القطن وحماره الأسود.

- الله يسلمك يا خالة ..

- لم أرك منذ زمان كنت صغيرًا عند آخر مرة رأيتك .. كنت تكاد تمشي على الأرض .. تحبو حتى تكمل المشوار الصغير، فرحت أمك كثيرًا عندما بقيت لها يا حامد بعد أن مات لها ثلاثة قبلك، أنت أول من ظل حيًّا لها .. تشوقت كثيرا إلى أمك يا حامد .. كيف حالها؟ بالأمانة.

ثم أردفت في لهفة قائلة:

- بالأمانة .. قل لي يا حامد؟

ابتسمت في عفوية، وقلت لأطمئنها:

- إنها بخير وعافية، وتبعث إليك بالسلام، وتسأل عنك كثيرًا، وقالت لي:

- قل لخالتك "حياة" متى تأتي لزيارتنا في البلد؟

توهجت عيناها ببريق الحنين إلى الماضي، وجرى الدم في وجهها، وبانت عليها حيوية ملحوظة فرحانة:

- أود أن أزوركم يا حامد في غمضة عين، ولكن كما ترى، فإن الأولاد والعمل ومشاغل الحياة تأخذ منا كل الوقت، وبإذن الله سأذهب إلى القرية، وأرجو أن يكون ذلك في الصيف القادم.

دخلت بنت صغيرة تحمل التحية .. خطفت عيني ملامح القاعة التي أجلس فيها: ألوانها داكنة .. تبدو بهوًا فرعونيًّا .. أثاثها أرستقراطي عتيق، على الجدار المقابل لوحة كبيرة تحتل حيزًا يلفت النظر، كتب بداخلها بخط نباتي جميل: "وأفوض أمري إلى الله" .. ساءلت نفسي في دهشة: إلى هذا الحد تعاني خالتي "حياة "؟! لعل وراءها سرًّا لا يعلمه إلا الله، ففوضت أمرها إليه، ولم تخبر أحدًا، وربما كان المرحوم زوجها هو الذي علق اللوحة.. مجرد خاطر سرح به ذهني، ثم عاد على صوتها الحنون:

- تفضل .. اشرب الشاي.

شربت قدحًا من الشاي اللذيذ، وشكرتها على التحية .. وكانت تسألني عن الأحوال .. كيف الناس؟ أهل القرية .. الذين ولدوا والذين ماتوا؟ الذين تزوجوا والذين انفصلوا، من اغتنى ومن افتقر ومن هجر الديار..! من بنى دارًا جديدة، ومن باع داره القديمة؟

ظللت أحكي لها وأجيب وهي تسأل وتستفسر، أرادت أن تعود إلى القرية من خلالي .. عبر دماغي .. قبل أن تذهب إليها بنفسها .. قالت لي: أنا لي ابن في الجيش، فقلت لها على الفور: أشرف .. فسألتني وكأنها لا تصدق:

- هل تعرفه؟

حكيت لها قصة لقائنا مصادفة، ففرحت لذلك كثيرًا، وبان السرور في عينيها، وأخذت تحدثني عنه وعن هوايته للأدب، وأفاضت في الحديث عن أشرف .. كنت خلال شرحها عنه أتفحص البهو الفرعوني الذي أجلس فيه بأثاثه المحافظ والنمنمات التي تزخرف كل شيء .. والمقاعد والستائر والحوافظ .. حتى مذ نفضة السجائر عليها نمنمات هندسية ارتدت بي إلى عصر الخليفة المأمون في بغداد، مع الفارق الزمني والموضوعي؛ حيث لم يعرف في ذلك الوقت تدخين السجائر!

تطرق الحديث إلى ما تكتبه هي من موضوعات إسلامية، وحاولت أن أبدي إعجابي إزاء كتابتها عن الدين، وتعجبّي من حبها للرقص الشرقي .. ولكني ترددت .. لم أستطع أن أخوض في هذه القضية .. فقط أبديت لها بعض تحفظات حول قضايا أخرى .. وكان حوارنا عميقًا ومثيرًا، وكم كانت تعيسة وهي تفاجئني ثانية بالحديث عن "أشرف" .. ! بدا لي أنها تحبه وتشفق عليه، وكان في صغره – تقول – مثالًا للولد النابه المؤدب، ولكنه بعد دخوله الجامعة أضحى مخلوقًا تائهًا – حسب تعبيرها – وغريبًا.

قلت لها محاولًا أن أعزيها، مدافعًا عنه:

- المهندس أشرف إنسان ممتاز، ولا تنسي أنه شاعر .. والشعراء يتبعهم الغاوون!.

وضحكت لأخرجها من التوتر الذي يسود حديثها، ولكنها اكتفت بابتسامة من يبطن أشياء كثيرة لا يريد البوح بها، وقالت:

- ليته كان شاعرًا؟ لقد فقد الشعور! ..



هزمتني عبارتها الأخيرة، دار رأسي .. قلت في نفسي: ترى ماذا حدث من أشرف الصعيدي لهذه الأم الرءوم؟ هل استغل وجوده بلا أب يردعه ليمارس حياة اللامبالاة وأشياء أخرى؟ لم أقف عند تساؤل واحد .. ظلت تطن في رأسي الأسئلة والأجوبة، حتى بعد أن غيرت مجرى الحديث، وتحدثنا في أشياء مختلفة، والحق أقول إنني لم أتحدث إلى امرأة أخرى بأسلوب أو بطريقة تشبه حديثي مع خالتي "حياة مرعي" .. لقد كان حديثا - وفيه سيرة أشرف - مفيدًا .. على أية حال لقد وعدتني أن نتحدث مستقبلًا، ونتناقش في الدين والأدب والفن، فسعدت بهذا الوعد، وودعتني إلى الباب مصحوبًا بالسلامات والدعوات والإجلال.

***

(3)

في القاهرة لا أحب سوى أماكن قليلة، وقد أحببتها بحكم العادة، أو بدافع التذكار، أحببت مسجد الحسين والمنطقة التي حوله، أصلي هنالك وأخرج إلى الشوارع المحيطة بالجامع، فأغوص فيها بجسدي، وأشعر حينئذ بارتدادي إلى الماضي العريق .. أرى خيل صلاح الدين، وفرسان المماليك، وأستشعر طعم الأيام التي ما هدأت على جبين الأجواد الأشداء .. أشم رائحة البخور والعطور والتوابل، وأرى فن الزخرفة والنقوش: صناع المنابر والخيام والأباريق والأواني .. الدنيا كلها تعج بالحركة والنمنمة وطعم الزمان، أغرق حتى أذني .. لعل الأجداد ينفثون من أرواحهم ليأتي أحفاد على شاكلتهم أو أفضل منهم، ولكن على مهل، إحساسي يقول ذلك .. لا أستطيع أن أخفي ما يجيش في داخلي .. الأمانة التي استحلفتني بها الخالة حياة تحتم عليَّ أن أحكي ما أحسه ولو كان ساذجًا .. من زمان وأنا أحب هذه الأماكن، عرفتها شارعًا شارعًا، وبيتًا بيتًا، ودكانًا دكانًا من روايات "نجيب محفوظ"، وعندما رأيتها لأول مرة بعد أن أتيت من القرية، ازداد تعلقي بها، لا تمر زيارة للحسين إلا وأمشي ألف في الشوارع حوله، وأتوقف عند "زقاق المدق" ببيوته الأربعة، وأتذكر ما قاله "نجيب محفوظ" في روايته، هنا كانت حميدة وعباس الحلو وبائع البسبوسة، والصنادقية تغص بالدكاكين، لا تفوتني شاردة ولا واردة إلا استعدتها من جديد، مع أن الذاكرة امتلأت بالرؤى والأفكار والأشجان.

أما "مزلقان" قطار حلوان الذي يتقاطع مع شارع المبتديان، فيثير في نفسي أكثر من شعور .. الحب والكره والأسى والفرح الذي لم يتم ! أحببت هذا المزلقان لأن محمد عبد الحليم عبد الله ذكره أكثر من مرة في رواياته .. ولأني أحببت الرجل حبًّا خالصًا؛ حيث إني أكاد أبكي عندما أمر من هنالك؛ لأنه مات قبل أن أودعه الوداع الأخير، وهل أكنت أستطيع تحديد هذا الوداع الأخير؟ بالطبع لا .. ولكنه رحل بغير إنذار، وترك التذكار يشعلني كلما مررت بشارع المبتديان متقاطعًا مع شريط القطار القادم من أو المسافر إلى حلوان.

يبدو أن هناك شيئًا خفيًّا لا أدريه، يربط ما بيني وبين بعض الأماكن برباط وثيق .. إنها آصرة حب لا تزول ببساطة .. هل هي الطبيعة التي ترسبت عن أهلنا القدماء في الجزيرة العربية عندما كانوا يبكون الأطلال ويرثون الديار؟ أم هي العشرة التي تجعلنا نرفع الأماكن الساكنة، والأبنية الصامتة إلى مرتبة الإنسانية فنتعلق بها ونهيم؟ لا أدري بالطبع .. ولكني أحببت أماكن من القاهرة كما أحب أماكن في القرية، أحسبها تتجلى في صحوي ومنامي، وتظهر في حلي وترحالي، جميلة المحيا، ناظرة الجبين، تناجيني وتغازلني وتبسم لي، وتضحك معي، وتهزني، وكأنها تقول لي: متى تعود إليَّ؟ أو تأمرني قائلة: عد؛ فقد غبت طويلا.

في هذا الصباح تشوقت لزيارة الحسين، تركت البيت دون أن يكون فيه أحد؛ فكلهم رحلوا منذ الصباح الباكر .. كانت الشمس مشرقة في الميدان، وساحة الجامع ممتلئة بالجموع القادمة من كل الأركان في مصر، والناس مختلطون تشوقهم زيارة السبط الشهيد، هنالك حول الأعمدة وفي الزوايا

عشرات الطلاب فتحوا كتبهم ومصاحفهم، وانهمكوا في القراءة والتلاوة، وسوف تجد أعمى يستمع إلى مبصر، يقرأ له ويستذكر، وما أكثر السائلين عن حسنة، والمنتظرين لصدقة، والمحترفين لتسول، وإذا رفعت قامتك وفتشت في الحوائط، فسوف تجد لوحة كبيرة عن يمين المنبر، زينت بماء الذهب، وكتبت بداخلها الآية الكريمة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:23]، ويهتف القلب: مدد .. مدد يا حسين .. المودة فقط يا حسين .. ولماذا لا تكون الأسوة والقدوة؟! معذرة يا إمام، فأهلي يطوفون بك ويقبلون مقصورتك كأنهم يقبلونك وما سألوا لماذا أنت هنا؟ بل لم يسألوا: من أنت .. لم يعرفوا عنك شيئًا إلا أنك ابن فاطمة الزهراء بنت الرسول × .. ما فهموا أكثر من ذلك، تخيلتك خرجت لهم من قلب المقصورة الفضية وهتفت بهم قائلًا: انصرفوا أيها الناس واذهبوا إلى كربلاء واسألوا عني من أنا؟ ولماذا جئت إلى هنا؟ .. ولكنهم يا سيد سوف يصطدمون باليهود في سيناء المقدسة، يمنعونهم عن زيارة كربلاء، وأجر الطائرات ارتفع.. معظمهم لا يقدر على ثمن التذكرة .. معذرة أيها السيد .. وطنهم محتل، ونساؤهم يطفن حولك بالميني جيب والجلاليب السود، ويطلبن البركة! سامحني يا ابن الإمام الشهيد .. سوف أقرأ لك الفاتحة على الباب، ولجدك ولآلك الطيبين .. أأنتم لا تطلبون سوى المودة في القربى؟! ما المودة يا سيد؟ الفاتحة والقبل الخرساء والرجال الذين يمسكون بالمقارع ويهتفون: اسع يا رجل. اسع يا زائر .. ورائحة البخور تعبق المكان ورمي الأحمال والأثقال والأحزان؟ كم أنت سمح في حياتك وشهادتك يا إمام!! .. لمَ لم تخرج إليهم وتنهرهم وتقول لهم: المودة هناك،

المودة هناك بالدم والشهادة من أجل الحق؟! معذرة يا سيد فسوف أخرج حالًا؛ لأن نفسي امتلأت .. فاضت .. كادت تقذف أشجانها على ضريحك الطاهر .. دعني أذهب .. دعني ..

الميدان يعج بالعربات الخاصة والأجرة .. والحراس ينظمون المرور إلى الجامع الكبير .. وتهفو نفسي إلى الغرق في خان الخليلي .. أين أنت الآن يا "دار الشيمي"؟ خان الخليلي خزانة التاريخ، والشوارع فيه ميراث غال ونفيس ومآذن الحي تهتف بالسائرين: <المودة في القربى> .. المودة يا أبناء العصر المهزوم .. تكاد تبكي .. تنوح على أيام زهراء تذكر فرسانا أسرجوا خيولهم وما تعبوا .. رحلوا بها في شتى الأصقاع وما وهنوا .. تمزقت أجسادهم بالطعنات وما جزعوا .. ساروا .. عبروا .. حملوا على أيام الظلم حتى ولت، ورفعوا في كل الأمصار رايات الزمن العادل .. وعندما عادوا واسترخوا، طاف الكسل السمج على عيونهم فرقدوا طويلا .. طويلا .. وما زالت مآذنهم تبكي .. تبكي .. كفى أيتها المنائر العالية .. دعيني أنعم بيومي، تمنيت أن تكون لي عروس .. فتاة أحلام حلوة جميلة، مشوبة الخدين بالحمرة .. تبسم في وجهي، فتغرد الدنيا من أجلي، أطفئ معها ظمئي وأشكو إليها تعبي، تهدهد بأناملها الرخصة مفرق شعري وجبيني، فأسلو أيامي المرة .. آه يا حلوة العينين والهدبين، يا سمراء الوجه، يا بهية الطلعة، لا تسأليني من أنا؛ فأنا القادم من أعماق القهر والغربة، أشكو إليك بؤسي وهواني، وأستميحك عذرًا ما فرطت من أيامي، وعندي زفرات حرى، أنفثها – لو سمحت – في حضرتك .. خذيني أسيرا .. خذيني فقيرًا، لا .. خذيني فارسًا مغوارًا .. خذيني رافضا متمردًا .. مات شبابي في قاع الغربة،

واليتم الوطني، لكنني ما زلت فتيًّا .. أين أنت يا فتاة .. انهضى لأقبلك .. ولكن لا .. لا .. نحن في خزانة التاريخ، والخان يمتلئ بالناس، أهل الحي والزوار، والنساء تطل من المشربيات تتجسس بالنظرات .. عفوك يا فتاتي إني عائد .. إلى أهلي .. ودار الشيمي، وسوف أطلب يدك من أبيك، وعندما يسألني عن اسمي وفصلي سوف أطلب منه أن يسألك أنت؛ لتجيبي نيابة عنني .. لا تخجلي .. لا تستحي .. لقد سقط الحياء في عصر الهزيمة، ورموا بالخجل في عرض الطريق؛ لأنهم رأوا في ذلك وسيلة للتقدم! ولو تمسكت بهذا سيقولون عنك "رجعية" أو "رجعية بنت رجعي"، وسوف يسخرون، وسوف .. الحقيقة: قلبي معك. لا تخافي ..أجيبي والدك .. الخوف أن يقول لي بصوته الغليظ الأجش: ليس عندي فتيات يؤخذ رأيهن. يا ويلي ساعتها سأغرق في محيط من العرق، ويندى جبيني، وأشعر بالخزي والمذلة .. أي والله .. ولكن أثق بك؛ لأنك شهمة وبنت ناس، وأبوك ليس مهمًّا، على الأصل دور .. جدك كان عسكريًّا في جيش عرابي، ولما مات أطلق عليه الناس (عرابي الكفر) .. يحكون عنه أنه كاد يقتل (علي خنفس) .. آمنه (عرابي) ولكنه غدر به، ودخل الانجليز "التل الكبير"، وضاعت بكارة مصر .. يا خسارة .. آسف، لا مؤاخذة يا حبيبتي، تعلمت ألا أخجل ونسيت أصول اللياقة، ونسيت المودة في القربي أيضًا، سامحني يا "حسين" .. سوف أودك بدمي وشبابي، ما تبقى منها فقط؛ لأن معظمها ضاع منذ زمان على قارعة الطريق المزدحم بالأشجان، ليس كهذا الطريق المؤدي إلى ميدان العتبة، إنه طريق آخر تعرفه الخالة "حياة"، ولو لم أحدثها عنه .. إنها تعرفه لأن ابنها "أشرف الصعيدي" بدأه منذ قليل؟ .. كم أنت طيبة يا



خالـة .. إلى اللقـاء في الإجـازة القادمـة، وسـوف أتحـدث معـك طـويلا طـويلا .. أمـا الآن فسوف أعـود إلى البيـت، ولـن أبقـى ثانيـة واحـدة، لقـد قررت الرحيل إلى "الكفر"؛ لأرى "دار الشيمي".

في ميدان " العتبة" رأيت الدنيا تلف وتدور .. أحشاء المدينة تهضم ما بداخلها، وأنا غير قابل للهضم .. ذهبت إلى محطة " المركبات"، وانحشرت في علبة سردين سارت بنا إلى البيت؛ لأعد حقيبتي وأرحل إلى القرية.

***

(4)

يوحشني مساء القرية .. أشعر بألف إحساس، وتتركب الأحاسيس في مزيج فريد، عندما تستدير الشمس قرصًا أحمر كالدم، وتوشك على الهبوط في قاع النهر الهادئ، وتسخو السماء بصفاء نادر، وتنداح تحت صفحتها الزرقاء أطيار القرية عائدة إلى الدور والأبراج، وتعود معها في ذات اللحظة طوابير الحيوانات والماشية قادمة من الحقول؛ لتقضي بقية الليل في أحضان الزرائب، وأمام طاولات العلف والأعواد الخضراء .. في مساء القرية يتطامن الناس، ويتلصقون بالدور كما الأطيار والأنعام .. أحيانًا تعمر المصاطب حتى وقت متأخر من الليل إذا كانت السماء مقمرة صافية والجو حارًّا .. تأسرني القرية في المساء، وأحب هذا الأسر، مع أن واحدًا من أحاسيسي المركبة يجاهد طاغيًا على كل ما عداه .. إنه إحساس الخوف .. الخوف ممن ومن ماذا؟ لست أدري! إني أعبر عما أشعر به، وإن كنت لا أستطيع فهمه!.

حقيبتي في يدي، والخلق كثيرون على الطريق المؤدية إلى الدور، يسحبون مواشيهم راجلين أو راكبين، ويتحدثون في أمور شتى .. ولكنهم يلتزمون الصمت عندما يرون قادما من البندر، سواء أكان غريبا أو قريبا .. يثيرهم ويوقظ انتباههم، يرحبون بالغريب ويعرضون عليه المساعدة، وإن كانوا في هذا الزمن يتوجسون خيفة من كل الغرباء .. يهمسون فيما بينهم أن أناسا يأتون القرية لمعرفة الأسرار .. أي أسرار؟ .. يقولون إن الحكومة تريد معرفة ما يقوله أعداؤها، وهل هناك أسرار حقًّا؟ لم يعد شيء يخفى ..

وهل لابد أن يرسلوا أحدًا لمعرفة ذلك؟ كثيرون يقومون بالمهمة .. مجانًا .. إشاعة تقول: كل خمسين رجلا بينهم عين .. إذن لا يفلت أي سر .. مرحبًا بالغريب عينًا كان أو ضيفًا .. استوي الماء والخشبة .. لا فرق بين سجن جماعي وسجن فردي .. حين يرون قريبًا آتيًا يسلمون عليه ويعانقونه ويحتفون بعودته، ويسترسلون معه في ذكريات بعيدة وأحاديث طويلة عن الأهل والناس والأحداث، عندما لمحوني اندفعوا نحوي، عانقوني، قبلوني:

- سلامات يا حامد .. حمدًا لله على السلامة .. متى تحاربون يا حامد؟ كيف الصحة والأحوال؟ شرفت .. نورت..

أحسست بدفء وسكينة كانا غائبين، اشتعل شوقي إلى أمي .. من زمن لم أرها، أشعر بالذنب حين أغيب عنها طويلا، وقد عودتني ألا أغيب عنها، ولكن شيئًا ما كان يلح عليَّ ألا أهتم بأحد .. فلا شيء يستحق الاهتمام .. مرة أخرى، استوى الماء والخشبة .. أحفظ هذه العبارة منذ الطفولة المتأخرة، كانوا يدرسونها لنا في درس المفعول معه .. لم نكن نفهم معناها .. آنئذ، كأنه فرض علينا أن نفهم المعنى بعد سنين طوال .. المحنة تعلم ما لا يعلمونه في المدرسة، الإنسان والرمل صنوان .. أنام ألف يوم في الخندق لن تتغير الدنيا، أغادر الخندق لن تتغير الدنيا، تسقط دانة على الخندق فتهدمه على من فيه لن تتغير الدنيا .. انتظار .. ويطول الانتظار .. انتظار للإجازة .. للموت .. للشهادة .. للمدفع .. للسفر .. ل .. ل .. لأي شيء حتى تتغير الدنيا .. ولكنها لن تتغير .. أنا مذنب في حق نفسي، وحق أمي، لماذا أغيب عنها؟ لم لا أهتم بها استثناء من القاعدة التي نبتت في عز

المحنة؟ أهو القرف يدفعنا إلى الزهد في كل الأشياء حتى الأمهات؟ ليت أمك لم تلدك يا عمر .. ليت أمك لم تلدك يا حامد؛ لأن ناموس الكون انهد، العدل ذهب، وعمر ذهب، وحامد ذهب .. لم يذهب .. إنه ميت .. أنا ميت .. حامد الشيمي مات، يموت، مات ولكنه يتكلم .. عفوًا يا أم حامد .. الخندق حبيبي .. الصمت صديقي .. أستكين إلى الصمت، أستمرئ حياتي بالمقلوب، تساوت الأشياء، وظهر القاسم المشترك: البرودة واللامبالاة.

آل الشيمي .. دار الشيمي .. دارنا صغيرة .. ثلاث غرف من الطين، ولكنها معقولة .. في الداخل زريبة واسعة مربط خمس بهائم وحمار وجمل، ليس لدينا كل هذا العدد، ولكنه ممكن .. عم رضوان يربط حماره الأسود "أبو سمرة" فيها حين تضيق حظيرته .. لدينا سرير عتيق له قوائم سامقة، يقبع في ركن حجرة من الحجرات الثلاث، تغطيه حشايا وفرش متهرئة، ما زالت في الحائط المواجهة للسرائر مرآة قديمة لها ساقان طويلتان، أعلاها على هيئة مثلث منفرج الزاوية، قالت أمي إنها أحضرتها في عرسها ضمن جهاز الفرح، آل الشيمي يفضلون الحجرة الخارجية المفروشة بحصيرة كبيرة، نأكل فيها وننام متراصين .. أنا الذي تمردت منذ وقت ليس بالقصير بعد أن أصبحت معلمًا في البرية، واقتنعت أمي بعد جهد، أفهمتها أني كبرت وأصبحت رجلا مسئولا، فقالت لي إنها تعرف هذا، ولكنها تخشى عليَّ .. وتريد أن تطمئن بنفسها عليَّ: هل أنام جيدًا، والغطاء يعم جسدي كله، ورأسي لم يقع من فوق المخدة، ولم أتقلب بكثرة حتى لا أسقط من حافلة السرير؟

أستيقظت عيناي عندما اقتربت من دارنا، وقبل أن أصل إليها لمحت في أول الحارة نافذة صغيرة، تطل منها عينان سوداوان .. أعرفهما جيدًا - أؤكد لكم - كان الفرح والشوق واللهفة ممتزجة تمامًا داخل الحدقتين .. ومن يفرح بي ويتشوق إليَّ ويتلهف عليَّ سواها؟

لقد كانت تسأل عني دومًا، وكان بيننا ود صامت، تخرص الناس وخمنوا كثيرًا، ولكنني ما وعيت ما قالوا .. كنا متآلفين على البعد، أول مرة رأيتها مصادفة كانت منذ عامين تقريبًا .. كانت تلميذة تناهز الخامسة أو السادسة عشر، جميلة الملامح، طبيعية السمات، هندسية القسمات .. في عينيها فرح وهاج لا ينطفئ .. لم تشغلني ملابسها المتواضعة، ولا منظرها البسيط، بل رأيت عمري كله مختزلًا في بريق عينيها، وعدت يومها إلى دارنا مفعم الفؤاد بالنشوة، تسكرني حلاوة روحها المشعة على جبينها الريان .. تعرف قريتنا أنها البنت الوحيدة لأبويها مع إخوة صبيان، وكان أبوها رجلا دمويًّا .. .. يبحث عن ذاته فقط، ويكره الآخرين بقسوة .. كل همه أن يضع تحت لسانه (فصا)، وليذهب العالم بعدئذ إلى الجحيم .. كان فظًّا وغليظًا ونزقًا .. ولكنه ما أثر في نشوتي التي أيقظت وجداني يوم رأيت ابنته، ورغم ما قاله الناس عن سفهه وتسكعه في الطرقات، فإنني ما اعتقدت يوما أنه سيجبرني على كراهية "زينب" .. لقد تفاهم قلبانا مصادفة، وعلى البعد .. بيد أن الحياء كان حقًّا سياج الحب مذكانا - كما قال عزيز أباظة - كانت عائلتها مجاورة لنا، أبوها وحده هو الذي شذ عن العائلة .. كان غريبا .. ما سرح إلى الغيط مرة، ولا سأل عن حقل أو زرع .. بل كان يترك كل الأشياء لأبيه العجوز .. والغريب أن العجوز لم يحتج أبدا .. كان يسوق محراثه وحده،

يحش البرسيم وحده .. فقط كان يستعين بالله الواحد الأحد، يساعده أطفال صغار من القرية في بعض الأحيان، وكان العجوز سعيدًا بأطفال ابنه، وهم يستريحون إلى جدهم الأشيب .. ينادونه أباهم الواحد .. لا يعرفون سواه مع وجود أبيهم الأقرب على قيد الحياة، ورؤيتهم له بعد الغروب أو مع الضحى في باحة الدار.

ما قال الوالد العجوز لابنه شيئًا قط، وأزعم لكم أن في ملامح ابنه هذا شيئا من الأستاذ عامر المنوفي، صدقوني فقد عرفت الاثنين عن قرب .. كلاهما تصحبه الكزازة وتسيره، وكلاهما يحلم بشيء مفقود لن يتحقق أبدًا!

كانت زينب نعم البنت .. يقول الناس عنها: بنت أصل طالعة لأمها، وقعت في شباك والدها هذا المخلوق الغائب عن الحياة والناس، المسمى "حسن الأزرق"، والأم ما ندمت على شيء بتاتا، ولكنها كانت تشعر بشيء من الرضا كلما تملت من جبين ابنتها، ورأت عيون أطفالها الصبيان، تراهم جميعًا زهرة تفاح في حديقة أشواك، وكان يرضيها حنان الجد العجوز الصابر الصامت .. لم أقابل هذه السيدة أم زينب كثيرًا، ولكنها مرات قليلة كنت أشعر أنني أتحدث إلى امرأة محترمة فعلا تجيد الفهم، وتدرك الأعماق، ورأيت كأنها تعلم أن صلة ما تربط بين قلب فتاتها وقلب حامد الشيمي - الذي هو أنا - وتبارك هذه الصلة وتنميها في صمت، ولكن سحابة من الغموض تجتاحها بسرعة حين تتحدث، فتعمل على إخفاء شيء في نفسها كظيم.

عند دارهم تمهل القلب، وتوقفت القدمان، ولم أدر أن الزمان كتب علينا أن نحيا تجربة "ما" في هذه الدار .. ابتسمت من خلال النافذة:



- حمدًا لله على السلامة يا حامد.

لم أكن أدري أن الذي يتكلم هي .. لم أكن أحلم، لم أكن أتصور .. لم أكن .. ولكنني الآن تيقنت .. لقد نظرت وحدقت، وأمعنت البصر، أعلى دارهم، وعلى نافذتهم، فرأيت الجنة الريانة تخضر فوق رأسي.

- الله يسلمك يا زينب.

هتفت بغير وعي .. رددت دون أن أعي .. وهتفت كل تقاطيع وجهها بالفرح، ومن خلفها رأيت الأم تشاطرها الفرحة وتومئ بالتحية، بل وترحب بي، وتدعوني للدخول .. من حق أهل الحارة أن يستضيفوني ولو دقائق قبل أن أدخل دارنا .. فحامد الشيمي ابن الحارة كلها، وليس ابنا لآل الشيمي فقط، في باحة الدار، رأيت العجوز الصابر الصامت يتربع أمام جمله الصديق، يلقمه لفافات البرسيم الأخضر، والجمل البارك يتناول الوجبة الخضراء في ألفة وود.

رأيت الأم تستقبلني بفرحة غامرة، ومن ورائها "زينب" تبتسم في خفة وحياء، وسلمت عليها، وبعد السؤال عن الصحة والأحوال سمعتها تقول:

- كم ستبقى؟

كانت تسألني في خجل عن إجازتي .. أعرف أنها إجازة قصيرة، يسعدهم أن تكون طويلة إلى ما لا نهاية، ولكن ما باليد حيلة.

- 48 ساعة.



- فقط.

- نعم.

- قالت الأم باستنكار وعتاب:

- إذن ستسافر اليوم ثانية؟

- غدًا صباحًا.

فقالت بأسى:

ولم أجهدت نفسك يا حامد، وأتيت في هذه الإجازة القصيرة؟ .. ألم يكن من الأفضل أن تنتظر حتى تأتي في إجازتك الشهرية؟

أجبتها ضاحكًا:

- من يعرف؟ فقد يأتي ميعاد الإجازة، ولا أكون موجودًا.

ردت بسرعة كمن لدغها ثعبان.

- بعد الشر .. بعد الشر .. لا تقل هذا .. إن شاء الله تعيش عمرًا طويلا.

- ألم تسمعي عن الضرب كل يوم؟

- وما له؟ من له عمر لا تهينه شدة .. شد حيلك يا حامد .. كنت أرى العيون الأربع تحدق فيَّ .. تتملاني .. ترسمني من طاقيتي الصفراء على رأسي حتى حذائي الأسود الثقيل في قدمي، كنت أرى في العيون فرحة غامرة وخوفًا بالغًا؟ لم أدرك كم يتعذب الآخرون من أجلنا إلا في تلك اللحظة .. ضحكنا جميعًا وودعتهم لأذهب إلى دارنا .. ودققت بحذائي الأرض حتى وصلت إلى دار الشيمي ..

❊❊❊

(5)

حين دخلت الدار كانت الأسرة حول موقد النار، كانوا يتسامرون بحكايا الأرض .. أعرف أنهم يذكرونني في كل ليلة، وفي الموعد نفسه، ويقولون لو كان بيننا حامد ما حدث هذا أو لحدث كذا وكذا .. في الغيط كنت أساعدهم في الري والضم والجمع، وفي القرية كنت أذهب إلى الجمعية لأنهي أعمالهم، وأقيهم شر العذاب الذي يلاقونه .. أخوف ما أخافه الآن أن يكونوا قد تجرعوا غصص العذاب من المشرف والأعضاء المنتخبين .. أي نعم الأعضاء المنتخبون .. إن الأعضاء المنتخبين يعتبرون العضوية شرفًا ووظيفة، يدافعون عنها بكل ما يملكونه .. كل عضو يصنع من عائلته كتلة تقف وراءه .. تؤازره وتعضده بالنبوت، وما أسعدهم ساعة يتلذذون بقهر بعضهم بعضا .. أعرف "محمود المندلاوي" .. إنه يكاد يفك الخط فقط، ولكن جميع الفلاحين يعملون له ألف حساب .. كلمته هي النافذة على رئيس الجمعية والمشرف وكل الأعضاء .. ما يقوله هو الصواب وعين اليقين .. ولم لا يكون كذلك، والعزومات في داره لا تنقطع؟ عائلة "المندلاوي" كلها لا تدفع مديونية مثل التي يدفعها آل الشيمي الفقراء، أو عم أحمد عطا الله الغلبان، الذي لا يملك عشر ما يملكون؟ ولكن ماذا تقول؟ حكم .. وربنا أعلم .. الرش لزراعة المندلاوي، وغيرهم ينتظر حتى يأتي الفرج، الجرار يدرس للمندلاوي قبل أهل البلد جميعًا .. لا يعترفون بالدور لأحد قبل المندلاوي .. والمصالح الخفيفة للمندلاوي فحدث عنها ولا حرج .. كل الفلاحين يشكون

المندلاوي، والمندلاوي يبدو كأنه الصخر، إنهم عائلة المندلاوي .. ليسوا أغنياء كبارًا، ولكنهم يملكون التأثير على الآخرين، يملكون الأسباب والقدرة على الحركة - يا ويلي من أسلوبي! - ما هذا الأسلوب وتلك القدرة على الحركة؟! تعبيرات المهزومين والمقهورين والمقيدين! يا ويلي من نفسي!، لقد خسرنا كل شيء، حتى التعبير البسيط عن عائلة المندلاوي، زعيمة الغم في قريتي! اقتحمتُ دارنا، نسيت كل شيء، وتذكرت كل شيء .. حين رأوني واقفًا بينهم ملأ الفرح أفئدتهم:

- حمدًا لله على السلامة يا حامد.

كانت معزوفة الاستقبال التي أداها جميع أفراد الأسرة، بعد أن وقفوا واندفعوا يعانقونني، ويتعلقون بي، وضمتني أم حامد إلى صدرها.

- أهلا حبيب القلب، افتكرتك منذ لحظات .. اشتقت إليك .. غبت عني كثيرًا وأنا في انتظارك .. نورت دارك يا حامد ..

- كنا في سيرتك والله منذ قليل ..

قال أخي الأكبر، والفرح يملؤه:

- كيف حالك؟ وحال الجهادية معك؟

- الحمد لله، بخير، والجهادية تمام.

- قل لنا ما معنى (تمام) يا حامد.

- يعني كل شيء على ما يرام، وحسن.

- لكم لغة لا يفهمها إلا العساكر.

- لغة مثل بقية اللغات على كل حال.

قلتها دون اهتمام؛ فلم يعلق أحد على ما قلت، فقط كان اهتمامهم منصبًّا على تهيئة الجو اللائق بغريب مثلي عاد بعد فترة طويلة لم ير فيها أحدا، كانت الدار دار عرس .. وزفة العروس طويلة قائمة على قدم وساق .. غناء وضجيج وضحكات وتصفيق ورقص وبكاء أطفال وصيحات كبار .. دنيا مولد هيصة، والناس في بلدتنا مشدودون إلى بعضهم رغم أنفهم .. يتشاجرون أحيانًا .. يتباعدون ولكن خنادق المواصلات محفورة دائما بين الأفئدة، والقلوب تؤدي عملها في ساعات المحنة والمنحة، ينسون كل ما كان من أجل ما هو كائن، ولهذا تهت في دار العرس، وإن لم يكن هناك عروس .. أمي كأنها وحدها .. الفرحانة والحبيبة والعروس .. تتحرك كثيرًا .. تكاد تزغرد .. يا ويل من لا يهنئها على وصولي، ولا يقول حمد الله على سلامة حامد؟ من لا يقول يصبح عدوًّا .. من لا يطلب السلامة ويحمد الله عليها ليس حبيبًا لحامد .. لابد إذن من شن حرب مقدسة ضده، تبدأ بالخصام فالهجر، فالمشاجرات الكلامية لأتفه الأسباب .. قطة الأعداء تمر فوق سطح أم حامد تشتعل الدنيا ولا تنطفئ بمياه النيل كلها، كلمة واحدة مشرقة تزرع السلام على ربا الحارة، ويسود الأمن والطمأنينة.

كانت فرحة المرأة أم حامد لا تقدر .. أقول لها وأناديها: "أم حامد" – كما أفضل دائما – فتسر لذلك كثيرًا .. إذا قلت "يا أمه" تنزعج .. حينئذ أكون زعلان، تحسبني كذلك، أكون قد تغيرت .. حدث شيء، ما تسألني فورا عما بي، تؤكد عليَّ بإلحاح، أقول لها ما كان .. تشاركني بعدئذ ما أعانيه

وتسري عني، وتتمنى لي عروسا مثل قمر أربعة عشر .. بنت حلال .. أهلها طيبون والبلد تشهد لهم بالطيبة .. فقط عليَّ أن أشد حيلي وأنهي العسكرية على خير، وسوف تستدعي فرقة الطبل والمزمار من البندر، لتصدح الأنغام على مداخل القرية، وتخرج الدنيا كلها تشهد الفرح الكبير .. فرحتها الليلة تمهيد لهذا الفرح العظيم .. عندما يسألونها عن حالها تقول لهم: جاء حامد وصل الليلة حامد، فيتوافد الناس من كل صوب .. الجيران والأحباب.

- حمد الله على السلامة.
- سلامات يا حامد.
- بالحضن يا ولد.
- أهلا.
- بالأحضان يا ابني بالأحضان.
- مازلت حيًّا يا ولد؟

وتمطر السماء قبلات وعناقًا، ودموعًا أيضًا ..

حين يجنّ الليل، وتهدأ الدار، وينفضّ الخلق، تصرّ أم حامد أن أكون ضيفها، وأخي الأصغر منصور الشيمي على مقربة مني وبجواري، تقول لي: لابد أن تنام يا حامد في قلب حجرتي بجوار أخيك.

وحشتنا يا حامد والله وحشتنا .. تقول المرأة أم حامد، فلا أجد مفرًّا من الرضوخ .. عبق الأم واحة في هجير الغربة .. آوي إلى هذه الواحة في ساعات الشدة .. أتخفف من أحمالي .. أرمي بأثقالها، أجفف عرقي ..

أطفئ ظمئي .. أرتوي من رحيق الشوق والرحمة، فأعود سخيًّا وقويًّا وفتيًّا .. لهذا رضخت، وبالقرب من أمي وأخي تمددت، وقبل أن يلفنا صمت الليل، دارت في رأسي صور شتى .. كان أبرزها صورة زينب تبتسم في خفة وحياء وخجل، وأمها تستقبلني بفرح غامر، وصورة الجد العجوز يلقم جمله لفافات البرسيم الأخضر في صبر عجيب، وأحسست أن الزمان يسير في بعض الأماكن في هدوء شديد وصمت عجيب .. وتثاقلت أجفاني ليضويني الليل تحت أجنحته العريضة، حتى يطلع النهار.

❊❊❊

(6)

يصرون على تكريمي أو إكرامي .. لابد من ذبح أوزة أو بطة سمينة، تسوى وتحمر، وتلتف حولها الدار جميعًا، وتجلس أم حامد بجواري؛ لتختار لي نصيبًا أكبر من أنصبة الجميع، ثم تفتت بيدها قطع اللحم؛ كيلا تشق عليَّ .. إنها لا تأكل، ولكنها تشجعني، وتطمئن علي، وتدفعني إلى المزيد من الجهد والمثابرة لالتهام المزيد من الطعام .. حينئذ يمكن لها أن تؤمن بأنني عوضت ما حرمته في الأيام السابقة، ونسيت الطعام الميري .. لقد أصبحت معدتنا يا أماه لا تهضم سواه، مع غلظته وخشونته .. في الأيام الأولى للتجنيد كان الطعام الذي يصرفونه لنا قليلا .. كنا نبذل جهدا كثيرا، نصحوا مبكرين ونظل نعمل ونتدرب بقسوة .. نقطة عرق توفر نقطة دم .. لافتة كبيرة معلقة على جميع الأركان وفي الطرقات وفوق الخيام، فلابد إذن أن نعرق بعد أن ضاعت أنهار من الدم هدرًا .. ولكننا يا أم حامد لا نأكل كل ما يحتاجه الجسد .. العساكر بالكوم .. من غير حساب، و"التعيين" بالميزان .. حكيت لها يوم بكيت حين ردني العريف عن التعيين الزيادة .. الجوع علمني أن أتقدم أول الصف .. آخذ تعييني وآكله سريعًا، ثم أنتظر ما يتبقى بعد التوزيع، لتقسيمه ثانية لمن يريد، ذهبت يوم بكيت لآخذ شيئًا، ولكن العريف كان من النوع المتغطرس الذي يهوى التسلط .. نظر إليَّ فرأى اللهفة في وجهي .. حدّق في ونظر باستخفاف آمرًا:

- انصراف يا جندي .. !

درت على كعبي، وعدت مسرعًا إلى خيمتي، ولم أتمالك نفسي يا أم حامد، بكيت كما الطفل، وسألني الرفاق، ماذا فعل معك ابن الـ ..؟ لا تزعل يا حامد، وراح كل منهم يقدم لي ما يأكله .. ولكن .. انسدت نفسي، لم أقبل رجاءهم .. قالوا لي: كلها أيام ونرحل إلى الجبهة .. هناك سنكون آدميين بحق وحقيق .. العسكري هناك بطل .. يكفيه أن يطلق رصاصته على رأس محتلّ يهودي .. حينئذ يشبع .. لا يأكل أسبوعًا .. شهرًا .. لأن الجوع يزول، مع الغم والقهر.

ولما عدت إلى أم حامد صنعت لي "زوّادة" فيها من الخبز المأدوم، والجبن المملح والحلاوة الطحينية، ما يكفي لفترة القحط التي أعيشها هناك، نفعتني الزوادة في أيام الرمادة .. آه .. يا لها من أيام كئيبة؟ ما أعظم الفارق بين أيام وأيام .. الحمد لله لقد أصبحنا أفضل حالًا .. يتكلمون كل يوم عن تعيين العساكر، وتحسين الطعام للعساكر، والاهتمام بالعساكر .. كلهم يتكلمون كبارًا وصغارًا، التحسن بدا واضحًا منذ فترة قليلة .. ولكن الروح مشقوقة مشروخة .. لو سألوني: لماذا يا حامد؟ لقلت ببساطة: أنتم تعرفون وأنا أعرف، فلا داعي للفذلكة والقلب مثقل!.

الزوادة مقدسة في أيام الرحيل، الذي يرحل من بلدتنا يعدون له زوادة؛ لأنه لن يجد أحدا يخبز له أو يطبخ، وحين كان الفلاحون يخرجون في أيام الحصاد إلى البرية للعمل، كانوا يعودون ومعهم أجولة الأرز قيمة أجورهم في الحصاد .. كانت تمتلئ أمتعتهم في الذهاب بالزوادات، وفي الإياب باللقيمات المتبقية من أيام الغربة، وكانوا يفرحون بالعودة، مثلي، إلى القرية، كانوا يشبعون حين يشارفون مدخلها ويرون مئذنتها العالية، وبرج الحمام،

وبيوتها الراكعة لرب الملكوت .. تخضر الدنيا على جبينهم الودود .. ولكني عرفت قيمة الزوادة في أيام الرمادة .. الأيام الأولى تحت رداء العسكر، لقد قلت لأشرف الصعيدي في أول لقاء: قل لأمك يا أشرف، اصنعي لي زوادة مثل أم حامد، خالتي حياة خير من يفهم هذه الأمور .. أليست فلاحة مثل أمي، رغم قشرة المدنيّة على مظهرها؟ نقل أشرف ما قلته له .. فرحت أمه بكلامي، وصنعت له زوادة قريبة الشبه من زوادتي، ذكرتني بأمي على الفور .. تريدون الحقيقة، لقد كنت أستثقل الزوادة وأنا عائد إلى الرفاق، كنت أبغضها، أشعر أنها قيد يغلني ويعوقني، وعندما أعود إليهم كانوا يعتبرنني بطلًا؛ لأنني أفرجت عنهم، وأطلقتهم من سجن التعيين الميري .. يطلقون على حقيبتي "الفرج بعد الشدة" .. أخذ أحدهم قلما ملونا وكتبها على الحقيبة بخط كبير، وفي سفري يعلق الناس على العبارة ساخرين أو ضاحكين أو مقهورين .. الفرج بعد الشدة .. أي فرج وأي شدة؟ .. شدة .. يهتف واحد، لم يعد لنا سواك يا رب .. أداري خجلي .. يسألني مسافر:

- هل تحمل حقيبة الفرج حقًّا؟ أم إن مفاتيح الفرج بداخلها؟ الله يبشرك بالخير يا دفعة.

ألوذ بالصمت المضطرم .. يفتر ثغري عن ابتسامة، أسوح مع الماضي والحاضر والمستقبل في لحظة واحدة .. المستحيل يحتل دماغي .. زملائي يحترمون حقيبتي أكثر مني، أقصد ما بداخلها، بعد أن نأكل لا أسلم من نقد، أما الحقيبة فمقدسة قداسة السّلاح، وتحظى أم حامد ببعض الثناء أحيانًا .. وقد حاولت أن أثنيها ذات مرة عن تجهيز الزوادة، فأبت

وأصرت، وبعثت من يحملها عني حتى المحطة في هذه المرة .. استسلمت رغم ثقل الزوادة وتحسن التعيين في الوحدة، وفي الطريق تعطل القطار عند بنها – قبلها بقليل – فبحثنا عن سيارة تحملنا إلى داخل المدينة، ومن هناك نواصل السفر إلى الجبهة .. طال الانتظار، وسيطر الجوع، ففتحت الزوادة، وتزودت حتى شبعت .. وفي سري دعوت لأمي، وحينئذ أحسست بالحرارة تسري في بدني، وتشجعت على السير مع عساكر آخرين متجهين نحو بنها، تحملنا الأقدار في طابور غير منظم .. ومن هناك واصلنا السفر نحو الجبهة في زحف عظيم.

❋❋❋

(7)

الجبهة؟ لا تسألوني عنها، أنتم تعرفونها، وأنتم الذين سميتموها كذلك، يوم اندحرت قواتنا في العام السابع والستين، وبقيت الفلول على الضفة الغربية للقناة، حينئذ أسميتم هذا الخط الفاصل المسمى قناة السويس: جبهة القتال .. هل هناك فرق بين القفا والجبهة؟ في أيامنا لا أرى فرقًا .. الجبهة تحت الجلد وفي خلايا الدم .. إذا سقطت هذه الجبهة أو فقدت فلا جبهات ولا قتال .. الجبهة في داخل "حامد الشيمي" .. في شرايينه وأوردته .. حامد الشيمي في داخله جبهة! ولكنها محطمة .. هشة .. ميتة .. حامد لم تتحرك جبهته تحركًا حقيقيًّا حتى الآن .. إنه ينتظر كل يوم دانة تسقط على موقعه، أو طائرة تدك بطاريته، ولكن الدانة لا تأتي والطائرة لا تحضر .. ماذا جرى؟ لقد فرح حامد يوم اشتعلت الجبهة في السويس .. خسر المصريون معمل التكرير .. لا بل احترقت السويس وضاعت أرواح.. كُفّن الكثيرون من الرفاق، سقطت يومها القنابل كالمطر، الطائرات في السماء كالعصافير بلا حساب، كان الناس يظهرون على حقيقتهم تلك الساعة، كثيرون كنا نعتبرهم بلا فائدة، وحين امتلأت السماء بالنار، أصبحوا عظماء .. هل أحدثكم عن زميلي عبد الراضي؟ عبد الراضي فتى صعيدي، أسمر الجبهة، أبيض الثغر، كان يحب حلقات الذكر وأكل المكرونة واليمك، ويكتب اسمه بالعافية .. رأيته تحت النار يقفز نحو الملجأ الذي يخزن فيه الوقود، ثم يحمل دانة لم تنفجر، ويجري بها بعيدا ويصيح: "به .. به .. يا بوي .. أنا عبد الراضي" ويتمتم مخاطبا الطيار

اليهـودي المعتـدي في الـسماء؛ ليفهمـه أن الوقـود لـن يحـترق، والدانـة لـن تنفجر، والعربات لـن تتحطم .. عبد الراضي يتحدث عن الحرب التي لم تأت، ينتظر الحرب التي لا تأتي .. يريد أن يقذف قنابل على عساكر اليهود الغـزاة، يقـول إن أمنيتـه الوحيـدة أن يعـبر ويحـارب ويقتـل ويقتـل .. عبـد الـراضي يحب البلح الرطب الـذي يـأتي مـن الـصعيد .. يجمعه مـن النخيـل بنفسه، وأعمامه يلفون له سباطة بأكملها .. يضعونها في قفة، فيثور، ويقول لهم: هل سأضعها على قفاي حين أسافر؟! فيستبدلونها بمقطف صغير، يحمله من أذنيه المضمومتين، ويأتي إلينا مشرق الجبين مفتر الثغر باسمًا .. وحشتوني يا أولاد .. والله كنت سآتيكم بقفة .. نضحك .. ونضحك، يتحول عبد الراضي الذي يكتب اسمه بالعافية إلى وحش ضار حين تلمع طائرة معادية في السماء .. يهتف من قلبه: أنا قاعد لك يا ابن الـ .. يخاطب الطيار الصهيوني .. وه يا بوي .. عبد الراضي يقول، ويستطرد أبواي لم يرسلاني إلى المدرسة .. ما ذنبي؟ علموني يا ناس وسأتعلم .. عبد الراضي الأمارة يحب ملجأ الوقود، ويعتبره كدارهم تمامًا، شرفه وعرضه يغار عليه من أي نظرة ترسلها طائرة في الجو؛ يوصينا بالملجأ قبل أن ينزل إجازته الدورية، فنوصيه نحن بالتمر والعيش الشمسي وبطة محمرة .. عبد الراضي الصعيدي ابن حلال .. له زوجة وولد .. لا يكف عن الحديث عنهما .. شف يا حامد، أنت الذي يفهمني .. الأولاد الآخرون لا يفهمونني .. أنت ابن بلد مثلي، وفلاح ولا تحب الكلام الكثير .. ابني عبد الرحيم له سنة ونصف يعرفني، ويضحك لي حين أدخل عليه الدار مع أمه ..نفسي أراه، وأقبله في كل نقطة من جسده .. ولد أسمر وحلو .. امرأتي بنت غلبانة، تظل - يا عيني - في انتظار، وتحسب للإجازة باليوم .. لا .. بالثانية ..

وتعد القطارات الذاهبة والآيبة من أجل عيوني أنا .. فاهمني يا حامد .. يضحك عبد الراضي الأمارة، ويتركني ويمضي إلى الكانتين؛ ليشرب الشاي، ويشعل اللفائف، ويحكي مع أبناء الصعيد عن النزول من الجبهة والعودة إليها.

لم أر حياة أكثر إثارة من الحياة في الجبهة، الصمت المهيب يظللها .. على القرب تربض حصون العدو، وخلفها مدافعه ومراصده تطل من خلال الجدار الرملي الصعب .. يوم احترقت السويس وبعدها كانت القذائف تنصب من عيون هذا الجدار انصبابا، ولكني كنت أحس بها دموع اليهودي التائه، مغموسة بالسم الزعاف، يشربها وطني دون مبرر.

كانت المدافع تقطع الصمت المهيب أحيانًا، وتعودنا ساعات انطلاقها، وكنا نتنبأ بالمكان الذي تنطلق منه، والموقع الذي تتجه إليه .. وكان أشرف الصعيدي ساعة التراشق ينظر إليَّ في أسى ولا مبالاة .. عيناه تنطقان بشيء ما، ولكنه لا يبين .. كنا نضحك في ساعات الانتظار حتى تسكن المدفعية، وبعدها نقوم نحن بمهماتنا خلف خطوط العدو حين يطلب منا .. عبد الراضي هو سلوتنا في زمن الصمت .. يجعلنا نضحك، وحين يهاجم أشرف الصعيدي يضج، حتى يكاد الموقف يتحول إلى كارثة تنذر باشتباك رهيب بين أشرف وعبد الراضي، وحينئذ أتدخل بينهما لفض الاشتباك، وألمح في عيني أشرف سره الدفين فأداعبه:

- اسمع يا أشرف .. عبد الراضي صعيدي بالفعل، أما أنت فصعيدي بالاسم.

هل تعرف هذا الفرق يا أشرف؟

يضحك أشرف .. لا يبتسم فقط، ويغادرنا خارجًا خوفًا من حملتنا عليه .. ولكن عبد الراضي يحلل موقف أشرف بمنتهى البساطة:

- تريدون الحق .. أشرف يريد أن يتزوج . ولكن أحدًا لا يرضى به.

فيرد عليه زميلنا "إسماعيل":

- أشرف أحلى منك على الأقل!

يضحك عبد الراضي:

- يبدو أنك مثله يا إسماعيل .. طيب .. فسر لي لماذا هو زعلان دائمًا .. إنه لا يفرد وجهه أبدا .. يشيل الغم على كتفيه .. يا سلام يا أولاد به يا بوي .. افهموني يا ناس.

يضج الخندق النصف مظلم بالضحك. .ويهتف إسماعيل:

- ملعون أبو ديان.

- سوف آتيك بعينه الثانية.

- يظهر أنك صعيدي!

يتغير عبد الراضي .. يثور .. ينقلب وحشًا ضاريًا كالذي يحمل الدانة الساقطة على مخزن ويهتف من أعماقه:

- اسمع يا إسماعيل .. الجد جد، والهزل هزل .. فاهم؟ تقدح عيناه شررًا .. إنه غضبان لأن إسماعيل وصفه وقال له إنك "صعيدي".

- ماذا تقصد؟

صمت إسماعيل ولم ينبس.

- الصعايدة أرجل ناس .. آتى لك بالدليل؟

- نعم .. أريد عين ديان الثانية.

أراد إسماعيل أن يلطف حدة غضبه، ولكن عبد الراضي خرج وترك الملجأ والقصف ما زال مستمرًّا .. خفنا عليه .. ذهب وراءه اثنان من الزملاء: محمود، وأبو بكر؛ ليقنعاه بالعودة إلى الخندق حتى ينتهي التراشق، ولكنه كان مصرًّا، فأقسما عليه بابنه عبد الرحيم أن يعود معهما، ورجعا من قرب الباب ومعهما عبد الراضي الذي بدأت عضلات وجهه ترتخي، وحاولنا أن نضحكه.

- صاحبك هو السبب يا حامد.

كان المتحدث زميلنا أبو بكر، وكان يقصد بصاحبي أشرف الصعيدي.

قلت له متصنعا الجد:

- لقد خرج أشرف وتركنا .. ولا نعرف هل أصابته قذيفة وهو سائر بين الملاجئ أو استطاع الاحتماء في واحد منها ..

ساد الوجوم جباههم، تحرك الشك في داخلهم؛ إشفاقًا على أشرف الصعيدي ورأيت عيني عبد الراضي لا تستقران على حال حين ذكرت أشرف، وصار ينفخ بفمه مغاضبًا ونادمًا .. وبعد قليل قطع الصمت:

- أنا السبب .. جعلته يخرج للموت .. ليتني ما تكلمت .. لولا كلامي ما ذهب .. مبسوط يا إسماعيل؟!

لم يتكلم إسماعيل، ولم يتكلم أحد .. اشتد القصف، وكانت الأرض تهتز بالزلازل، والرعد يدوي في السماء، وفجأة دخل أشرف وهو يضحك ويفاجئني قائلا:

- ما الذي أحضرته من عند أم حامد؟

نظرت إليه وكأني لا أصدق أنه حي أمامي ..

بَهْ يا بوي .. لك سبعة أرواح يا عفريت .. فكرت أنك مت. كنت أهم بالبكاء الآن على شبابك يا باشمهندس .. قال عبد الراضي .. ضحك أشرف وضحكنا جميعا .. وتحدث محمود مخاطبًا أشرف:

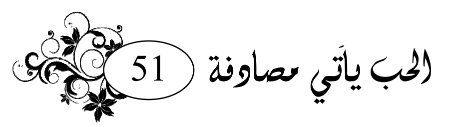
- اسكت يا أشرف .. انتظر حتى نرى ما أتى به الأستاذ، (وأشار إلي).. هل تعاركت مع أم حامد هذه الإجازة فلم تأت بشيء؟

- أطل بالك يا محمود.

- خير البر عاجله.

هتف إسماعيل وهو ينظر إلى عبد الراضي بنصف عين، فقمت من فوري واتجهت نحو الزوادة والتفّت الجماعة حولها، وسمعت عبد الراضي يقول:

- يا جماعة قبل أن نأكل، اقرءوا الفاتحة لأم حامد، وسيدي عبد الرحيم، وضحكت الجماعة في فرح عظيم، والقصف فوقهم يدوي في عنف شديد.



ما الذي أحضرته من عند أم حامد؟



***

(8)

تحت القصف العنيف أتينا على الزوادة حتى آخرها، ودعونا جميعا لأم حامد، وكنت سعيدًا لأني أشاركهم الدعاء، تمنيت لو كانت معنا لترى دعاء الأولاد الملفوف بالسخرية والقفشات اللاذعة.

كان أبو بكر فتى ريفيًّا قليل الكلام، ويحب الأكل بشراهة، ولكنه نادرا ما يتكلم، وأهم مميزاته تقوى وورع، يتمثلان في صلاته التي يؤديها بانتظام ولو تحت النار .. وقد علمنا التيمّم في غيبة الماء، وكثيرًا ما كنا نلجأ إليه؛ ليقدم لنا فتاواه، فقد كان في أول عهده بالتعليم أزهريًّا، ثم تمرد على الأزهر في العام الواحد والستين، يوم أرادت الحكومة أن تنفي عنه سمته الأساسية، وتجعله كبقية المدارس التي تجعل الدين مادة رسوب ونجاح فقط، لا تضاف إلى المجموع، وقد كان هذا المتمرّد قليل الكلام يؤمن أن الدين يؤخذ بالجهود الذاتية أو الحلول الذاتية حسب تعبير الباشوات في الاتحاد الاشتراكي .. فلم يعد الأزهريون يحفلون بالدين إلا ما ارتبط منه بالشكل فقط .. حتى الشكل أهملوه .. الأزهري يلبس العمامة والكاكولة، وتحتهما قميص وبنطلون .. أفندي من أسفل وشيخ من أعلى، وتساوى زيد مع عمرو - يقول أبو بكر - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وحين يذكر شيئًا عن تاريخ الأزهر يتوهج جبينه بالاحمرار، وتظهر شخصية الفتى الربعة، فيستطيل حتى يصبح كالمارد:

- أتدرون ماذا كان يعني الأزهري في الزمن الخالي؟

ويضحك بسخرية .. ويداري ثورة مكبوتة ..

- أتعرفون ماذا كان يعني في الزمن الماضي؟ .. كان يعني قيادة شعبية .. قيادة مثقفة .. قيادة جريئة ...كان يفهم في كل العلوم، ويخشاه الحاكم والمحكوم .. ألا تذكرون ما فعله؟ .. ما فعله .. وانقطع عن الكلام وغامت الرؤيا في عينيه؛ لأننا رأيناهما يهتزان في المحجرين .. ويتقلبان كفريقين في محيط .. ولكنه شيئًا فشيئًا أخذ يعود إلى الاستقرار، وتطفو عيناه الغريقتان على السطح ثانية في سكون وديع، فيواصل ثورته المكبوتة من خلف الحدقتين النديتين:

- الكرك.

ثم سكت .. ولكن عبد الراضي كان أسرعنا ليقول له:

- أمي تلبس الكرك يا أستاذ أبو بكر.

- فتح الله عليك يا شيخ .. كما قلت .. أقصد هذا الكرك فعلا .. هذا الكرك كان علماء الأزهر يهتمون به ويعطون له اهتمامًا بالغا مثل أي واحدة في الريف تهتم بالكرك.

- نحن في عصر الميني جيب.

قالها إسماعيل في خبث، ثم استدار بوجهه؛ ليخفي ضحكة طفت على شفتيه ..

ولكن الأستاذ بكر - كما كنا نسميه اختصارًا – عاجله:

- ميني إيه .. وزفت إيه؟ اسكت يا بني آدم!

وكادت تحدث كارثة بين بكر وإسماعيل لولا اهتمام بكر بموضوع حديثه، فتكلم بعد صمت قليل:

محمد علي مؤسس مصر الحديثة لبس الكرك .. والذي ألبسه الكرك واحد من علماء الأزهر هو السيد عمر مكرم .. تصوروا؟ لعلكم تتعجبون حين ترون الواقع الآن مختلفًا، ولكنه التاريخ المؤكد حين ألبسوه الكرك اشترطوا عليه أن يحكم بالحق والعدل وشريعة الله، ولكنه بعد أن استأسد، فعل معهم ما فعله صاحب "الخورنق" بـ "سنمار"، وتشرد العلماء، وأصبح الموجودون منهم في الساحة يدعون للفرعون بالنصر والتأييد، ويفرضون الدعاء كل يوم جمعة على أعواد المنابر .. وبات الناس بلا علماء دين ولا ..

وقاطعه إسماعيل ضاحكا:

- ولا دين .. قل ولا تخف.

تهلل وجه أبي بكر أو الأستاذ بكر كما كنا نسميه، فقال له رفيقنا محمود، وكان يستمع في إعجاب ودهشة معًا:

- كأني بك تعيد أيام الصديق، وأتخيلك الآن تهتف بنا: والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليها، ولكن صدقني يا أستاذ بكر - آسف يا عريف بكر - إنك تنفخ في قربة مقطوعة .. فمن المؤكد أنك لو تكلمت بهذا الكلام خارج الخندق لأخذك زوار الليل في رحلة وراء الشمس ..

تجهم وجه العريف بكر .. ذلك الأزهري المتمرد، وتأفف ولكن رفيقنا القاهري المهندس محمود راشد لم يرحمه:

- تريد من العلماء أن يلبسوا الحكام الكرك؟ أنت خيالي، اسمعهم الآن، وهم يقدمون الفتاوى الباطلة لإرضاء الحكام .. أسمعت عن الذي جعل من الملك فاروق سليلا لبيت النبوة؟ أتذكر ذلك يا حامد؟ - كان يكلمني - أنت تقرأ كثيرًا، وكذلك أشرف الصعيدي، ولكنك تملك ذاكرة جيدة.

وعندما تجاهلت كلامه واصل حديثه في حرارة:

- يؤسفني يا أخ بكر أننا خياليون، نتشدق بالحكمة، ولا نستطيع أن نطبقها إلا بالإكراه .. هكذا نحن دائمًا .. في صحيفة الصباح اليوم قرأت لأحد الكتاب الواصلين - ما معناه - أننا لن نستطيع القتال ولن نستطيع اقتحام قناة السويس أبدًا .. هكذا فهمت من الشروط التي وضعها الكاتب اللامع .. سنظل هكذا أنا وأنت وحامد وإسماعيل وعبد الراضي وأشرف، وكل العساكر والضباط في الخنادق كأهل الكهف؛ حتى يشيب شعرنا، ويبيض شعر الغراب أيضًا!

ضحك إسماعيل، وقال لمحمود:

- لقد أصبحنا أغربة .. وبدأ الشيب يغزو سوالفنا، فلا تغضب يا سيدي.

حقًّا .. لقد غزا الشيب سوالفنا، ولكن الكاتب اللامع لا يرضيه ذلك، بل يرضيه أن تبيض رءوسنا تمامًا، ويكون عندئذ قد استمتع بعشرين صيفًا على ضفاف بحيرة "ليمان" في سويسرا.

هكذا تكلمت لأشارك في حديث لم أكن أحبه، ولكن إسماعيل أخذ يحمل على العريف بكر؛ ليغير من مجرى الحديث:

- أرى أن يترك الأستاذ بكر حكاياه التي أصبحت مثل الجبن القديمة .. شبعت تمليحًا، وشربت من المش، حتى رشح البلاص من الخارج، والأفضل يا أستاذ بكر، أن تبحث لك عن بنت جميلة، تعطيك قبلة، وترد عليها بالمثل، وتنام في دفئها، وتنام في دفئك .. وعليك أن تعجل بهذا قبل أن يفوتك القطار، ويبيض شعرك مثل الغراب .. على الأقل كما يفعل أشرف .. إنه يأخذ حقه في الدنيا والآخرة .. أما أنت فقد خسرت كل شيء و .. و ..

حاول أن يستطرد، ولكن محمود قطع عليه الطريق:

- كفى يا إسماعيل .. لا تمزح في ساعة الجد.

- لا تزعل يا حبيبي .. ابق حتى تخرج من الكهف كالغراب .. ضحك محمود، وعاد إلى الجد:

- الحق أن العريف بكر، رغم أنه متمرد، وحين يتكلم أشم رائحة كارثة تقترب، الحق أنه على حق .. فما الفائدة إذا كنا ندور في حلقة مفرغة . نتراشق بالنار، ونقوم بعمليات محدودة، تقوم بها فصيلة أو سرية مشاة، ولا نستطيع أكثر من ذلك، والإذاعة لا تشبع رغيا كل يوم عن الحرب والنار والقتال والنضال وروسيا وأمريكا .. نحن في الخندق لا نريم؟ والأدهى من ذلك أن الناس لا يستطيعون أن يتكلموا، ولا يعرفون ماذا ينتظرهم .. الكل تائه وضال وضائع.

وسكت محمود ونظر إليه بكر دون أن ينبس، أما عبد الراضي فلم يعجبه الكلام؛ لأنه لا يفهم لماذا نتجادل، وإسماعيل يسخر ويضحك، وأنا



وأشرف سارحان كل في طريق .. ولكن عبد الراضي يتدخل ليفض كل أثر للحوار:

– فضوها سيرة يا جماعة .. بَهْ يا بوي ألا تشبعون كلامًا؟!

ولكننا لا نفضها سيرة، ونظل نتحاور ونتكلم حتى ينقطع صوت القصف في الخارج، فنتأهب لمهمة في الضفة الأخرى ..

عرفت أن حزن أشرف لم يكن من البساطة بحيث أتركه كغيره من الأحداث يمضي في اللا وعي، وقد حاولت أن أعرف سره فلم أفلح لأول مرة .. ولكنني مع الإصرار عرفت الكثير ..

***

(9)

كانت محنة أشرف الصعيدي معقدة الملامح والأطراف .. وزادها تعقيدًا ما يشعر به تجاه الناس، حين يراهم لا يعبأون به بوصفه واحدًا منهم، له من الحقوق ما لهم، وعليه من الواجبات ما عليهم .. ومن ثم كان حزنه أعمق من بئر، حين افتقد من يسرّ إليه بهمومه ويحكي له حزنه.

لقد حاول أشرف أن يصطفي من رفاق الخندق واحدًا يقول له ما يخبئ في أعماقه من أشجان، ولكن محاولاته ذهبت سدى، حتى وجد في شخصي الضعيف؛ بحكم المعرفة القائمة والجيرة القديمة بين أسرتينا، أو بالأحرى منذ كانت الخالة حياة أم أشرف في قريتنا، وتسكن بجوارنا مع عائلتها. ولعل ما لقيه منى حين وفد علينا جنديًّا مستجدًّا جعله يأنس إلي، وبحدثني حديثه الذي لم أتوقعه؛ لما أراه فيه من ميل للمغامرة، وجرأة لا تهتم بالعواقب، فضلا عن الدوافع.

كان صوته غير الذي عهدته حين راح يقول بأسى:

- إني أتمزق يا حامد!!

وتنهد تنهيدة طويلة، عبرت عن ثقل ما يعانيه، وإن كان لي رأي آخر في هذا الذي يعانيه .. بيد أن خياله الرومانسي وميله إلى الأدب، والشعر خاصة، جعلاه ينظر إلى الأمور بحساسية زائدة، تجعل من الحبة قبة كما يقول أهلي في القرية.

كنت أعرف علاقته المتوترة بخالتي "حياة" - أمه - وكنت أدرك مدى تمزقها حياله بين حبه والإشفاق عليه .. لقد رأت فيه نموذجًا لا ترتضيه، وكان نزقه يرسم في خيالها صورة مضخمة له ولسلوكه .. هذا كان يلقي في وجدانها إحساسًا باليأس لا مثيل له، يكاد يتحول إلى إحساس بالفقد الكامل.

أما عنه هو فقد هزته حياة العسكر من الأعماق .. غيّرته تماما، حتى شعر بالهوان في أيامها الأولى - كما حدثني - وفكر كثيرا في الانتحار، ولكن شيئًا ما في داخله - يسمّيه جبنًا - جعله يتراجع في آخر لحظة .. لم يكن متعودا على الأمر والنهي، وكان يكره التحكم والمظهرية .. ولكنه غرق فيها حتى أذنيه رغم أنفه.

- أنت خيالي يا أشرف .. تصور لو أن كل عسكري تصرف بمزاجه الخاص، فهل يستطيع أحد السيطرة على الجيش؟ أو صرف أمر بالهجوم أو الدفاع؟

- لست خياليًّا كما تصفني .. ولكن حين أرى صف ضابط يجعل من همه أن يكدرني أنا وأمثالي بدون سبب، اللّهم إلا للتلذذ بالكدر .. فهذا ما يضايقني .. بل يجعل الحياة سوداء كالطين .. ثم أنسيت أن هناك قانونًا يحكم الجميع؟ لماذا لا نطبقه ويأخذ كل حقه؟

- نحن في مرحلة تحول ..

قاطعني بعنف:

- هل كل الجرائم تبرر بالتحول؟ إلى متى نظل في تحول؟ نريد أن نتطور .. ننتقل من الأسوأ إلى السيئ من الحسن إلى الأحسن .. لماذا يبقى "ضابط صف" لا يعرف القراءة والكتابة ليقود سرية مؤهلات، فيحصر كل همه في إذلالهم، ومعالجة النقص الذي يستشعره بقهرهم؟!

كان يتكلم بغضب وانفعال شديدين .. ورأيت أن من الصعب إقناعه برأي يخالف رأيه أو يعدله .. ولكن حزنه وخياله كانا يجعلان من أتفه شيء قضية فيها ادعاء ودفاع وقرار محكمة .. كان مرفهًا، فأصبح يعيش على الأرض، ويغسل لنفسه أطباق التعيين، ويخرج مع الطلبة - بضم الطاء - لتقشير البطاطس وتنقية الأرز وقطف الملوخية وخرط الطماطم في المطبخ .. وتعود شرب الشاي مرة واحدة في اليوم .. وتعلم الاحتجاج القانوني، حين كنا نتظلم من المعاملة السيئة أو نقص التعيين أو سوء الطهو .. ورأى شعر رأسه يقف عند طول معين لا يتجاوزه أبدًا، وعرف أنه غير مسموح لذقنه بالإنبات إلا لمدة يوم واحد؛ حيث كانت كثيفة للغاية.

- ولكن ما الذي يحزنك هكذا يا أشرف؟

وضحكت محاولًا أن أجعله ينسى ثورته المضطرمة، لم أكن حقا أقصد إجابة عن هذا السؤال، ولكنه خيب ظني حين انطلق على سجيته يحكي في تأثر بالغ وشجن عميق:

- اسمع يا حامد .. إني حزين كما لم يحزن أحد ..

- لماذا يا أشرف؟ .. أنت رجل ممتاز .. شبابًا وفتوة .. وعلمًا، وأدبًا أيضًا، وقد تصبح شاعرًا فحلا - وابتسمت - ومهندسًا سيكون له مكتب كبير أو شركة مقاولات ضخمة، وقبل هذا وبعده تملك أمًّا اسمها خالتي "حياة مرعي" الأستاذة القديرة في العلوم الإسلامية والصحفية اللامعة والأم الحنون ... و...

- كفى ... كفى ...

كان يلوح بيده، وهو يصيح لكي أكف عن الكلام ...

- لا تسخر مني يا حامد .. أنت لا تعرف كم أعاني، تظنني عربيدًا يمرح على هواه ولا تفهم العقد التي تقيد مخي وتشله عن الحركة .. أنا صورة فقط، جسد يتحرك، تعتقد أنه حي ولكنه ميت، ليس ميتًا فحسب، إنه ميت مثّلوا به، وسحلوه في الطرقات كما كان يفعل عبد الكريم قاسم في العراق.

(وصمت قليلا) ثم أردف:

- فقدت كل الأشياء يا حامد .. الحنان والأب، والأم أيضًا، وتمزقت على قارعة الطريق ..

كان عاطفيًّا مفرطًا في عاطفته، لم يستطيع أن يكبح هذه العاطفة عند الحدود المعقولة .. لقد كان أسيرًا لهوى، استطاع أن يرغم نفسه على الاعتراف به، ولكنه لم يسعد في حبه، بل زاده تعقيدا . كان يحب فتاة اسمها هدى المتولي .. سحرته عيناها الزرقاوان، وشعرها المرسل في لون الذهب،

ووجهها المستطيل، وشفتاها القرمزيتان، وقدرتها العجيبة على الحركة والإقناع والجدل .. قالت له يومًا:

- أحبك يا أشرف .. أعبدك.

وفاجأته بهذا القول، كان يعرف انتماءها العقائدي .. كانت تميل إلى الماركسية بالوراثة .. أبواها .. والأصح أبوها كان من الأغنياء، ولأسرته مئات الأفدنة في الصعيد، وتزوج أم هدى .. وصار مثلها ماركسيًّا، يدعو للثورة من أجل الكادحين، ويحبذ حكم البروليتاريا .. كانت الأم يهودية وأسلمت، ثم اعتنقت الماركسية طريقًا سياسيًّا يحقق أحلامها، وكان تأثيرها على زوجها - والد هدى - غير محدود .. منذ أن تعارفا ذات ليلة في إحدى الحفلات بالعاصمة وتوجا هذا التعارف بالزواج.

لم يكن أشرف يتصور عن هذه المجادِلة الساحرة أن تتلفظ بهاتين اللفظين: الحب والعبادة، خاصة وأنها كانت متطرفة إلى حد كبير في عقيدتها السياسية، ولكنها أيدت كلامها حين اقتربت منه ذات مرة وأمسكت بمنكبيه، وأخذت تهزه ثم مالت عليه، وتحسست وجهه، ثم تقاربت العيون والشفاه والأنفاس، وسكرت معه بنشوة قلبه، لم يذق طعمها من قبل أبدًا. ولما أفاق أحس باللهيب يحرقه ويشعل دمه، وكانت اللذة تطيح بكل فكر عاقل، فاغتنم الفرصة، وسقط مع العقائدية الفيلسوفة في جبّ عميق.

ولما أفاق أحس باللهيب يحرقه ويشعل دمه

- أنت عمري يا أشرف .. ولا أستطيع العيش دونك، أنت عقيدتي وحياتي وفلسفتي وروحي وعقلي ..

أحس عقله يدور، ويدور، انتقل إلى مرحلة بين اللا فهم واللا غباء، فشعر بنفسه في منطقة انعدام الوزن .. أدهشه ما سمع، وأذهله ما رأى، وأفجعه ما فعل .. فدارت به وبعقله الأرض.

ولما رحل إلى العسكرية تعلقت به، وعلى رصيف القطار المسافر إلى الجبهة عاهدته وأوصته، وقالت له:

سوف أنتظرك حتى تعود ..

وأشرف لا يدري أيعود أو لا يعود .. لم يعرف أشرف كيف يواجه العالم من حوله بعدما حدث، كان يشعر أن الناس جميعا تحت جلده، يعلمون ما حدث، ويحللونه، وينظرون إليه شزرًا، ويكادون يشيرون إليه كلما مر بأحدهم أو التقى ببعضهم .. ورفض أشرف أن يسافر في إجازته . .. أكثر من إجازة تمر وهو قابع في الخندق لا يريم، وكنت أشعر بالأسى في أعماقي لمحنة أشرف، ومحنتي أيضًا، ومحنة الوطن .. أحسست بأمي تناديني بندائها الحبيب أن أعود إليها، وأعيد إليها الأمن والطمأنينة والثقة .. ورأيت نفسي تهفو إلى زينب، وتحلق في الأفق الفسيح عبر الممر المائي الضيق إلى التيه العريض، على القرب منا في سيناء الأسيرة المتحجبة بالحصون الرهيبة والصمت المهيب.

***

(10)

صحوت هذا الصباح منهكًا .. أنهكني حديث أشرف وشجنه، وتمنيت لو انزاحت عنه الغمة من أجل الخالة "حياة" - أم أشرف - فقد كنت أشعر تجاهها بشيء من الود والألفة، وكان يكدرني حزنها وشقاؤها مع أشرف .. أحسست بإرهاق شديد، خاصة وأن قصف الأمس كان شديدًا ومتواصلا، واستمر حتى مطلع الفجر.

لم نكد نتناول الإفطار حتى سمعنا صوت ضابط الصف الأقدم ينادي:

- اجمع.

فانتظمت فصيلتنا في طابور مستقيم كحد المسطرة .. صف وراءه صفان .. وأمام الجمع وقف الرقيب أول عبد الفتاح جمعة، على رأسه الخوذة، وعلى ظهره الشدة الثقيلة وسلاحه وقناعه الواقي معلقان بكتفه .. أدى التمام للنقيب إسلام.

- تمام يا افندم.

رفع كل منهما يمناه بالتحية، وتبادلا بعض الكلمات، واستدار الرقيب أول عبد الفتاح، وتراجع خلف الصفوف، وتحدث النقيب إسلام، وشرح الموقف بكلمات قلية قاطعة، وأمرنا بالانصراف، فانصرفنا ..

في الخندق ارتدينا الشدة، وتممنا على السلاح والقناع، وتجمعنا ثانية لنرحل في السيارة اللوري إلى مكان ما. وهنالك توقفت السيارة .. نزل

العسكر .. انقسمنا إلى جماعات .. كل جماعة لها قائد برتبة الملازم يساعده عريف.

كانت جماعتنا - بالإضافة إلى الملازم عبد الرحمن وأنا - تضم عدداً من العساكر، من بينهم بكر ومحمود وعبد الراضي - الذي أصر على ترك موقعه في مخزن الوقود والخروج معنا - وإسماعيل وأشرف وعبد الله وخالد ..

لم يكن الأمر واضحًا تمامًا، وتضاربت الأقوال .. كانت الشمس فوق رءوسنا، وما زلنا في المكان نفسه لم نبرح، ولم نعلم إلى أين، وأخيرًا صدر الأمر بالبقاء حيث نحن لحين صدور أوامر أخرى .. فنصبنا أضلاع "الهايك"، واسترخينا حتى تتكشف الأمور .. كل ثلاثة جمعتهم خيمة صغيرة .. في خيمتي كان أشرف فقط .. لقد أصبح الجناح الثاني لي شئت أم أبيت، خاصة بعد أن أفضى بهمومه .. كانت أول مرة تقريبا يخرج فيها أشرف لمهمة، بدأ غير مستريح لها، وقرأت في عينيه ملامح كرب عظيم.

- ما رأيك في هذه المحنة اللطيفة؟

وضحكت .. كنت أقصد ما نحن فيه من انتظار. ولكنه بدا أيضا غير عابئ بما يجري ..

- تساوت المحن يا حامد .. تعددت الأسباب والموت واحد ..

- الله الله .. ما هذه الحكمة التي هبطت عليك أيها الفيلسوف المهندس، يبدو أن الهندسة ملاصقة للفلسفة .. تريد الحق؟ لم أر حتى الآن فيلسوفًا مهندسًا، وإن كان حبك للأدب هو الذي قربك من الفلسفة.

تأفف أشرف:

- اللعنة على الفلسفة والهندسة جميعًا.

- يبدو أن هدى لها تأثير كبير .. لا .. من المؤكد أنها قامت بانقلاب شامل ضد أفكارك وطريقة حياتك .. إلى هذا الحد تغيرت يا أشرف؟!

- إن المشكلة ليست في هدى، بل أمي .. إنها لا تثق بي أبدًا، وهدى تعتقد - ولست أدري لماذا - أنني أسير لأفكار أمي الرجعية.

- ما هذه الأفكار الرجعية.

- أنت تعرف سفسطة الماركسيين وحذلقتهم .. إنها تعرف أن أمي متدينة، وهي لا تؤمن بالدين، وتعتقد أن كل فرد له الحق في سلوكه الشخصي، ولا اعتبار لديها للقيم أو التقاليد و...

قاطعته قائلا:

- هل سمعت عن الصينيين حين قضوا على الدعارة والذباب والعصافير؟

- لا أعرف بالضبط .. ولكن "هدى" تعرف عن أمي ما لا تعرفه أمي عنها، وإن كانت أمي ترى المشكلة منوطة بي بالدرجة الأولى، ولا يهمها أن تعرف هدى أو سواها.

دخل علينا عبد الراضي بصوته القوي يعلن ضيقه، وينقل نبأ جديدًا.

- بَهْ يا بوي . . يوم طويل، أطول من مصر لغاية قنا .. يا عريف حامد، يا عريف حامد: لن نمضي حتى تغطس الشمس .. رتب نفسك على هذا، وأنت يا باشمهندس (يخاطب أشرف) تقدر أن تنام حتى المغرب.

- من قال لك .. سألته؟

- سمعت الرقيب أول عبد الفتاح يهمس للعريف حسين في الجماعة الثانية.

تركنا عبد الراضي ومضى سريعًا، فتأفف أشرف:

- أف .. أيامنا انتظار .. انتظار متى تمضي الدنيا بغير انتظار؟! على فكرة يا حامد .. إني أفضل أن أموت في غارة مفاجئة، بدلًا من الموت الهادئ.

- ما لنا وللموت يا باشمهندس .. أتريد الهرب من هدى؟

وضحكت.

- أعوذ بالله .. أنت دائمًا تقطع الجد بالهزل .. لم تكن كذلك يا حامد، لقد تغيرت في هذه الأيام .. أصبحت ميالًا للسخرية والمزاح بدرجة غير معقولة.

- حقًّا؟

- نعم .. والدليل على ذلك أنك لا تترك لي فرصة أتكلم فيها كلامًا جادًّا حتى نهايته.

- أتعتقد ما تقول؟

- نعم .. أعتقده تمامًا .. لقد قطعت حديثي أكثر من مرة .. وكان ضحكك من أقوى الطعنات التي تصيبني في عمق روحي .. هل تسخر مني؟ إذن لن أتكلم معك بعد الآن.

رأيت أنه لابد من ترضيته .. جاءته نوبة الحساسية الزائدة، واستولى عليه مزاجه الشاعري، فراح يفسر الأشياء بطريقته الخاصة، ويعتبر مزاحي سخرية منه، والحق أني رغبت في التخفيف عنه، والانتقال به إلى أشياء أقل حزنًا، أو أقل مأساوية من حزن ومأساوية أشرف .. ذلك الصديق العزيز، فقلت له متصنعًا الجد:

- آسف .. ولنعد إلى حديثنا .. تكلم عن الموت في غارة مفاجئة والموت الهادئ، وسوف أستمع ولن أقاطعك ولن أضحك.

ولكنه انطفأ فعلا، وما عاد يريد النطق .. عيناه غائرتان، ووجهه تكسوه كآبة عظيمة .. قال لي:

- أرجوك .. دعني؛ فإني أريد النوم .. سوف أنام وأيقظني عندما نتحرك.

- تستطيع أن تنام كما شئت .. بقي على الغروب بعض الوقت، ولكنك جائع، ألا تنتظر حتى تأكل لقمة؟

- لا، لا أريد أن آكل مطلقا .. نفسي مسدودة .. دعني أنم .. وأخرج البطانية من شدته، وفرش مشمعه، ووضع الشدة تحت رأسه، وتغطى بالبطانية، واستلقى في سبات عميق .. هكذا حسبته .. ولكن من يعرف الحقيقة سيقول غير ذلك بالتأكيد .. فأشرف يضنيه الفكر والخيال جميعًا .. تآمرا عليه وسوف يدمرانه، ما عاد يرى موضع قدمه من أين، ولا إلى أين .. فليحتم ببطانيته وليهرب من نظراتي، وكلامي، ولتكن النتيجة ما تكون .. ولتذهب أمه وهدى والعسكرية والشعر إلى الجحيم، ولكن أنى له

أن يهرب؟!، وكيف تفارقه أمه وهدى والعسكرية والشعر؟! كل منها يضغط على أضلاعه بحب وقسوة، حتى أصبح كالريشة في مهب الريح، تتقاذفها الهموم والأشجان، مضافًا إليها جميعًا شيء كريه اسمه الانتظار ..

لم ينعم أشرف - يا عيني - بالنوم طويلا؛ فقد صحا على صوت إسماعيل قادمًا من بعيد .. وهو يصيح:

- أشرف بك .. الباشمهندس أشرف .. العسكري أشرف يا ولد يا أشرف هاك رسالة من الأحباب .. رسالة وردية مزوقة ورائحتها عطر فواح .. لن تأخذها منى حتى ..

- وتوقف إسماعيل على باب الخيمة الصغيرة، ونقب بعينيه:

- أين أشرف؟

وتقدم إلى الجسم المغطى بالبطانية الرمادية وراح يهزه:

- قم يا ولد .. قم ..

تحرك أشرف .. سحنته متغيرة .. بدت علامات الفجيعة على وجهه المخطوف ..

- ماذا؟

قالها أشرف وهو يعتدل جالسًا، يزيح الغطاء عن نصفه الأعلى ويفرك عينيه.

- ماذا؟ تقول لي ماذا؟ ألم تسمع صوتي وأنا أصيح كالمؤذن في قرية حامد الشيمي ومسجد السيدة زينب والإمام الشافعي، ماذا جرى لك يا أشرف؟ يدك على سيجارة طويلة جدًّا أولا، ثم خذ رسالتك ثانية ..

عاود أشرف فرك عينيه بيديه، ومد يديه إلى إسماعيل ليأخذ الرسالة، ولكن إسماعيل رده قائلا:

- العب غيرها .. السيجارة أولا ثم الرسالة الوردية ثانيًا .. فهمت يا باشمهندس؟

- ليست معي سجائر الآن ..

- اسمح لي أن أفتشك ..

- سأعطيك سيجارة.

- الآن .. الآن وقبل أن تأخذ الرسالة.

- أوه .. إنك عنيد لابد أن تثير المتاعب، انتظر حتى أفتح الشدة وأخرج منها سيجارة لسيادتك ..

وبدأ أشرف يفك مهماته، وأخرج علبة سجائره، وناول إسماعيل سيجارة، وانتظر أن يعطيه الرسالة، ولكن إسماعيل قال:

- كبريت لإشعالها .. أشعلها أولًا، ثم خذ أمانتك ..

- خذ (وناوله الولاعة) .. إنك متعب.

قرأ أشرف الرسالة، كانت لها رائحة عطر مثيرة، وريقة رقيقة شفافة، خطها منمنم يدل على أنثى .. تنسيقها مهذب يدل على وعي وذوق .. كان

أشرف منبسطًا في أول قراءته، ولكنه في النهاية أو قبلها بدأ يتجهم حتى استحالة سحنته البيضاء إلى قطعة من الليل.

- ما الأخبار؟ .. سألته.

- لا جديد .. زفت كما هي ..

- عظيم، طالما الزفت موجود فسوف نرصف كل الشوارع والطرقات في أرض الكنانة الحبيبة دون أن نستورد الزفت بالعملة الصعبة.

ضحك إسماعيل:

- إنك متفائل جدًّا .. حتى القطران أصبح بالعملة الصعبة .. كان صوت الرقيب أول عبد الفتاح جمعة آتيًا من قلب خيمته، آمرًا بالاستعداد للجمع والرحيل .. فانطلق إسماعيل وتركنا نحزم مهماتنا، ونفك الخيمة، ونتجمع مع الغروب؛ لنقوم بمهمتنا بقيادة النقيب إسلام، والملازم عبد الرحمن، وكان محمود وبكر أول من نزل إلى مياه القناة في قارب المطاط؛ ليتقدم الجماعات إلى الضفة الأخرى، وكنا جميعًا وراءه.

***

(11)

الضفة الأخرى .. الضفة الأخرى هي الجبهة التي تتكلمون عنها كثيرًا يا سكان القاهرة في صحفكم الرغاية وإذاعاتكم المنافقة، ولا تعرفون ما هي الجبهة بالضبط .. الله والصحراء والصمت المهيب يعمرون سيناء، ويقيمون فوق كل ذرة من ترابها، يتحدثون إلى القادم إليها من عمق الريف والصعيد .. تفضل .. أهلا وسهلا .. لا تلق بالًا ليهود .. فقد جاءوا ليرحلوا .. قبلهم جاء الكثيرون ثم رحلوا .. الرعاة، الحيثيون، التتر، الصليبيون، نابليون، الإنجليز .. كلهم رجعوا بنعل واحد من نعلي حنين .. مكتوبًا في جوفه صنع في مصر .. الله والصحراء والصمت المهيب يرحبون بالقادمين من كفر المحاريم وشارع القلعة ونجع الكوامل وأولاد علي .. أنتم ضيوفنا الليلة وكل ليلة .. من يبقى ومن يعود .. الذي توحشه الغربة نأذن له بالرجوع، والذي يأنس هنا فعلى الرحب والسعة.

السماء صافية والأرض ندية طرية مضمخة بعبير ضيوف أقاموا هنا منذ العام السابع والستين .. قاموا يرحبون بنا أيضًا .. قمصانهم، بنطلوناتهم، بقايا العظام المطحونة، قطع الحديد الصدئة، أوتاد الخيام المطمورة في التراب، ليل الصحراء فوق الحصون والاستحكامات، عيون يهود المنبعثة من خلال ملاجئهم البعيدة، الغائرة في عمق التراب، كنا نلبي الضيافة .. ونقول: أهلا وسهلا .. نعم الضيافة وجل المضيف .. أحسست بالفتى "أشرف" وهو يغدو كالطائر المغرد .. جبهته تضيء الليل فرحان يشقشق،

يسير بهمة ونشاط .. دبت فيه الحيوية .. كان غريبا هذه الليلة، لم يسأل عن شيء، لم يلعن شيئًا .. فقط قال:

- انتهى زمن الانتظار .. سوف تمضي الدنيا بغير انتظار.

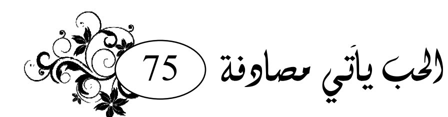
ابتسمت في جوف الظلام .. لم أعلق بشيء؛ لأني كنت مشغولا بالمهمة .. كنا قد عرفنا الموقع وتوزعت المهام .. وكل يفكر في دوره صامتا، يضبط أنفاسه على إيقاع خطواته في قلب الرمال الفرحانة بضيوف الليلة المظلمة.

كنا نواصل السير حسب الخطة، وفجأة توقفت الجماعات .. كان توقفهم نتيجة صوت غير مألوف .. لعل العدو قادم؟ هل عرف الخطة فأعد خطة مضادة، وانتظر حتى أصبحنا في قلبه وأصبح هو قادرًا على هضمنا بسهولة؟

كنت بالقرب من الملازم عبد الرحمن؛ بحكم أقدميتي في الجماعة .. أفهمني أنه يجب الانتظار حتى ينجلي الموقف.

مضت لحظات الانتظار بطيئة وثقيلة .. أبدى الملازم عبد الرحمن خوفه من انقطاع الاتصال بالضفة الغربية، وكان إشفاقه على النقيب "إسلام" قائد العملية واضحًا .. إنه مغامر مندفع جريء، وكان ينتظر هذه اللحظة منذ زمان، وقد تقدم بمجموعة الاستطلاع نحو الهدف .. اندفع إليه بأكثر مما هو مرسوم في الخطة ..

بعد قليل بدأت الخطة تنفذ .. انطلقت المدفعية الثقيلة من الضفة الغربية، وأخذت القذائف تنهمر كما السيل على الصحراء الساكنة،



وانطفأت عيون يهود المنبعثة من خلال ملجئها البعيد. بدأنا نحن نتقدم، كان الهدف هو الملجأ الذي انطفأ، وتحت القصف الهائل القادم من الغرب كنا نفتح النيران في قلب الملجأ .. وكان قتال، وكانت ليلة، وكانت نار تندلع فوق الصحراء وتشق الأفق نحو السماء.

***

(12)

كانت العودة مفعمة بشتى الانفعالات؛ الفرح والحزن، والدموع نوعان، وصوت المياه وفوقها قارب المطاط يعزف ملحمة الصبر والانتظار وما بعد الانتظار.

كنا نعبر في الذهاب وراء بكر ومحمود، ولكننا عدنا نحمل جثة أحدهما .. محمود العاقل الأريب، وبكر كان يئن بفرح .. أرأيتم جريحًا يلعلع الفرح في عينيه؟ إنه رفيقنا بكر المشهور بقلة الكلام والصرامة، أما عبد الراضي فكان يكابد شوقه للزعيق والتعبير عن حزنه العميق باهتمامه الشديد بجثة محمود الأمارة وكان يحدثه في همس:

- لماذا ودعتنا سريعًا؟ هل زعلت منا؟ أو إنهم غلبوك؟ لا لم يغلبوك .. لأن رصاص الليل أعمى .. سوف أقوم بتوصيلك حتى باب الدار .. وسأسلم على أمك وأبيك وإخوتك، وأشكوك عندهم .. سأقول لهم: محمود زعل منا، وتركنا سريعا.

بَهْ يا بوي .. كان عبد الراضي يصيح.

- اسكت يا جندي.

كان صوت النقيب إسلام ينطلق آمرًا في صرامة قاطعة، ولكن عبد الراضي بعد قليل عاد إلى الكلام في همس:

- الولد إسماعيل سيجن .. ما له يتكلم مع الجثة هكذا؟!



- اسكت.

كنت أنا الذي آمره هذه المرة .. ولكن مثله ما كان يرضى بالصمت، رغم أن اسمه عبد الراضي .. ضحكت في نفسي؛ لإصراره على الكلام وتفسير ما يراه .. كان يريد أن يحتج على ما رأى من إسماعيل؛ فقد أحس بأنه - أي إسماعيل - فقد اتزانه ونسي أن الحرب أخذ وعطاء .. الأصح عطاء ثم أخذ، وغالبا ما تكون عطاء فقط، ولكن إسماعيل المرهف الضاحك الساخر المشاغب أبدًا، نسي نفسه، وأخذته الدوامة التي صنعها استشهاد محمود الأمارة، أطلق لنفسه العنان فبكى وذرف كثيرًا من الدموع .. لم يصدق أن محمود ا الذي كان حيًّا منذ لحظات تحول إلى جثة هامدة .. حاول بعض الرفاق أن يطيبوا خاطره، ويفهموه أنه لابد أن يتعود منذ الآن ومستقبلا على الفقد والفراق والخسارة أيضًا .. ويتعلم أن يكون صموتًا وكتومًا، يمنع الدمعة، ويحبس الآهة، ويخفي الملامح.

كان صوت أجهزة الإرسال والاستقبال يطن وينهمر كالسيل من خلال جهاز الاستقبال الذي نحمله .. الدنيا هاجت وماجت .. أصوات العدو تختلط بأصوات قواتنا .. ولكن جهاز الراديو كان يأتي بصوت إذاعتنا الرغاية، وهي تذيع أغنية منتشرة.

"الطشت قال لي يا حلوة ياللي"

تذكرت ما ستقوله هذه الإذاعة بعد قليل ربما بعد ساعة أو ساعات، وطفا إلى سطح مخيلتي صوت الأستاذ عامر المنوفي، ووجهه المحتقن تعلوه الحمرة، ويغلفه الانفعال في جمعية الأدباء بشارع القصر العيني.

- لابد من دولة كبرى تسندنا في مواجهة إسرائيل.

من المؤكد أن الأستاذ عامر قد اشتدت عليه علة المرض منذ قابلته آخر مرة .. في ذلك اللقاء المثير، الذي أبكاني بغير دموع، وأحزنني حتى كدت أمزق نفسي وأذهب بلا ثمن!!

غفر الله لك يا أستاذ عامر .. فالمحنة شديدة، ومثلك معذور فعلا حين يرى الأشياء بعين اليأس ومخلفات الماضي ورواسبه .. إني أطلب لك من الله الشفاء العاجل .. ولعل الشفاء الجسماني يأتي بالشفاء العقلاني .. من يدري؟

لقد أصبحنا على الشاطئ الغربي ثانية .. كل شيء مكسور ومشروخ، ولكن شيئًا ما يوحي بأن الكسر والشرخ إلى زوال، نحن هذا الشيء؟ ربما !! لقد تغيرت الصورة الآن .. على الأقل بالنسبة لي، قبل النزول إلى المياه بقوارب المطاط .. كنت شيئا، والآن أشعر أني شيء آخر، لقد تمنيت أن أبقى هنالك في ضيافة الله والصحراء والصمت المهيب، ولكن يا ويلي لقد عدت ثانية إلى الأرض المشروخة .. وهل ستظل مشروخة؟ يقيني يقول: لا.

حملنا رفيقنا محمود – الأمارة – وكان يوضع على الجرح فيطيب .. ولكن قدره أن يحرمنا الأمارة والطي ويذهب سريعا أوه .. هل سأصبح مثلك يا إسماعيل؟ هل سأنسى نفسي؟ رحمك الله يا محمود ورحمني .. سأذهب معك حتى بلدتكم، وأودعك بنفسي .. أقل واجب .. يا أمارة .. أمسح قطرات على خدي .. عد إلى وعيك يا حامد .. نحن بشر .. آه يا جرح الأحبة لا تلوموني .. لا ..

وعدنا إلى قواعدنا وقد فقدنا رجلا وأتينا برجل

(13)

كان الرجل الذي أتينا به يهوديًّا عربيًّا، جاءوا به إلى الخط الأول ليحمي دولة "التوراة" .. في رقبته علقت سلسلة ذهبية يتدلى منها نموذج مصغر للتوراة .. كنت أحسب اليهود يهتمون بأشياء أخرى كما فهمت من إذاعاتنا وصحفنا وكتابنا المسموح لهم بالكلام .. وحين رأيت "يوشع" (اسمه) أيقنت أن هؤلاء الناس يهتمون بكل الأشياء .. قلت لأشرف:

- هل سمعتهم وهم يفسرون الأسباب والنتائج لحرب حزيران؟
- من هم؟
- أتتغابى؟
- أبدا والله، وأحسبك جئت بشيء غريب على أذني، أو عثرت على تفسير جديد لما حدث.
- أقصد المتكلمين في بلادنا.
- إذا كان الأمر كذلك .. فأنا أعرف كل ما قالوا.
- إذن أنت تعرف ما قالوه عن هجوم إسرائيل لإسقاط النظم القديمة؟
- نعم أعرف.
- لقد تراءى لي هذه اللحظة أن أسألهم سؤالا: وهل كان الهجوم بهذا المنطق يستهدف الملك حسين؟

- لا أفهم ما تريد.

- أعني أن الملك حسين بمفهوم المتكلمين عندنا لم ولن يكون تقدميًّا، فكيف نفسر احتلال إسرائيل للضفة الغربية والقدس.

- صحيح .. صحيح ..

ضرب أشرف جبهته بيده، ثم قال:

- إن "يوشع" يؤكد ما ذهبت إليه، ويعيد التقويم الصحيح للموقف إلى مكانه الطبيعي، فالصراع بيننا وبين اليهود، ليس بين الإمبريالية والتقدمية كما استمعنا، وكما شبعنا استماعا، وإن كنا حتى الآن لم نر نظامًا تقدميًّا بأي مقياس من المقاييس، اللّهم إلا الشعارات، وما أكثرها!، وتستطيع أن تملأ بهذه الشعارات زكائب وغرائر كما تفعلون في أجران قريتكم أيام الحصاد، والحق أن الصراع أشمل من هذه الرؤية التي تسربت إلينا من الخارج .. إنه صراع قديم ومزمن .. لقد قال "موشيه ديان" عقب الحرب التي انتهت بانتصاره الخيالي على ثلاث دول عربية ما معناه: لقد أصبح الطريق إلى "خيبر" مفتوحا .. أمي هي التي ذكرت ذلك التصريح أمامي، وإن كنت لا أعرف ما تعنيه خيبر تاريخيًّا، لقد سألتها حينئذ عما تعني فقالت لي: إن "خيبر" هذه كانت آخر المعاقل اليهودية التي طردوا منها بعد غدرهم بالمسلمين .. هذا الكلام يؤكد أن هناك أعماقًا جديدة للصراع غير التي يرددها من تسميهم بالمتكلمين في بلادنا.

وكف أشرف عن الكلام بعد أن استنفد ما في جعبته، وقد حمدت له ذاكرته الواعية التي احتفظت بتصريح القائد اليهودي الذي لم أذكر له إلا تصريحا بالغ الخيلاء، حين ادعى أنه يجلس بجوار التلفون ليسمع من يحدثه من القاهرة أو دمشق أو عمان؛ تعبيرًا عن الهزيمة الفاشلة والاستسلام الكامل ..

- وهل تعتقد أنهم – هنا – أدركوا هذه الحقيقة .. أعني أن للصراع أعماقاً أخرى، وجوانب جديدة غير التي يرددها المتكلمون، أو أنه يجب علينا أن نوضح هذه الجوانب للناس؛ حتى يدركوا قسوة الصراع وضراوته؟!

كنت أتساءل، وأشرف يكاد يسرح مني في خيال شعري يحط عليه في بعض الأوقات، فيصبح كالنائم أو المنوم، إنه يستغرق في عالم لا أدريه، ولو أفلت مني، لما استطعت أن أتحدث إليه، والحديث في ليالي الخندق يكاد يكون السلوى الوحيدة، التي نعتمدها، ولا نفرط فيها بثمن، وتكون كارثة حين يتخاصم اثنان فلا يتكلمان أو يتناجيان!.

هذا الكلام يؤكد أن هناك أعماقًا جديدة للصراع



- أأنت معي يا أشرف أم ذهبت إلى وادٍ عبقر؟
- أبدًا .. أبدًا .. إني مصغ لما تقول، وأؤيدك فيه.
- تؤيدني في ماذا؟
- أؤيدك في قسوة الصراع وضراوته.
- هذا ما فهمت؟
- بالطبع .. وكل ما قلته.
- للأسف .. لقد سرحت مني يا أشرف.
- أوه .. هكذا لا تصدق .. لقد أصبحت ترتاب في كل شيء يا حامد .. لابد أن تجعل لحسن الظن نصيبا في أحكامك.
- لم تصل المسألة إلى هذا الحد .. لا شك ولا يقين، القضية أنني أردت أن أطمئن إلى حضورك معي .. حضورك العقلي أقصد .. فالشعراء في كل واد يهيمون، والذي قال هذا ليس أنا بالتأكيد .. ومن أدراني بأنك معي؟ إذا لابد أن أستوثق يا باشمهندس! لأنه لا يمنع أن تستمع إليَّ بأذنك، وتسافر بمخك إلى هدى مثلا .. أو ..
- وهنا اتسعت عيناه، وتوهجتا ببريق غريب، وعاد ليؤكد كلامه ثانية:
- دعنا من هذا .. ولنعد إلى موضوعنا.
- المشكلة أن بعض الناس يفسرون القضايا المصيرية تفسيرات تتفق مع مصالحهم الخاصة، وارتباطاتهم بالآخرين .. وسكت قليلا، ثم عاد واستأنف الحديث وواصل قائلا:

- وطالما بقي الأمر على هذا النحو، فسنبقى دائمًا في "محلك سر"، ولعل هذا هو السبب في أننا لم نحقق أي إنجاز على أي مستوى، أو في أي مجال، حتى الأشياء التي كنا نتفوق فيها هبطنا عن مستوى التفوق إلى دركة عميقة و ...

قاطعته:

- أنت متشائم جدًّا .. ليست المسائل بهذا السوء .. إن قسوة المحنة تجعلنا نجلد كل الأشياء، حتى ذواتنا، وتنطبق علينا نظرية تعذيب الذات، وقد صح هذا بما نراه من حديث عن تخلفنا، وتفاهتنا، وحقارتنا .. بعض المتكلمين يردد هذا دون حياء.

وبالانفعال والحماس نفسهما قال أشرف:

- أولا لست متشائمًا جدًّا كما تقول، ولم آخذ المسائل على النحو الذي تحدثت به، وإنما قصدت أننا نعاني من شيء ما، يجعلنا أو جعلنا نسير في محلك سر .. هل تستطيع أن تفسر لي سر هزائمنا الثلاث في أعوام 48، 56، 67؟ هل تقدر أن تشرح لي لماذا كتب علينا أن نحارب على بعد آلاف الأميال في اليمن السعيد .. ويضيع الرجال والمال والسلاح دون مقابل؟ ويقتل الأخ أخاه دون مبرر للقتل؟ انظر: لقد رجع الملكيون إلى الجمهوريين في اليمن، وقد أصحبنا - نحن المصريين - نحظى بكراهية لا تغسلها مياه الأنهار الموجودة في العالم كله.

تهدج صوته، ذكرني بصديق كان طالبًا في إحدى الكليات بالإسكندرية، ويوم خرجت المظاهرات أوائل عام 1968، أصابته رصاصة، وخلفت له

عاهة مستديمة في ساقه، كان منفعلا "كأشرف" متحمسًا مثله، وكنت أخاف عليه أن يسمعه أحد، ولكنه كان عاتيًا، وشديدًا وممتلئًا قبل كل شيء .. وكان يفيض بالحديث عن الحرية والعدل والتقدم .. أشفقت على أشرف أن يصبح مثل صديقي الطالب الجامعي.

- أشرف .. جدران الخندق لها آذان!

وبسرعة يغلفها الاندفاع واللامبالاة:

- لا أخشى شيئًا .. ما عدت أخاف .. لقد فقدنا كل شيء على المستوى الشخصي والمستوى القومي، ولسان حاله يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فنحن كالبهائم تساق، ولا حول لنا ولا طول، وتأتي أنت لتقول: إني متشائم جدًّا!!

- يبدو أنك أصبحت مجادلا ماهرا .. لعلك تأثرت بصديقتك هدى البارعة في الجدل والنقاش والحب أيضًا.

- لا تمزح ساعة الجد يا حامد، وأذكرك بهذا، أقسى شيء على نفسي أن تمزح وأنا أتكلم جادًّا ..

- لا تغضب بسرعة هكذا .. أتريد أن نظل في الغم إلى الأبد ..

- لا .. الفرق هو أن لكل لحظة مناسبتها اللائقة.

- آسف يا باشمهندس .. استمر ..

ولكنه لم يستمر .. أحسست بأني قهرته؛ فأنا الوحيد الذي يعلم مواطن جراحه، وكان ينبغي أن أبتعد عنها .. إن نكأ الجراح يصمي .. وأعترف أنني ما راعيت هذه المقولة، اعتقدت أن قوة الصداقة وتوطدها وشفافيتها تعطيني الحق أن أتكلم دون حرج أو قيود، ولكن متى كانت النفس البشرية سهلة وسلسة إلى هذا الحد؟ هناك دائمًا أشياء يجب أن تظل مختفية عن أقرب الأقربين، نخفي أنفسنا عن أنفسنا .. أحيانًا يخيل إلينا أن الأمر كذلك، وإن لم يكن كذلك بالضرورة؛ لذا أحسست أن من العبث أن أنتظر منه كلامًا؛ فالمقهور لا يحسن كلامًا ولا فعلا، حتى لو أراد.

لزمت الصمت .. تشاغلت بمهماتي .. أقلب فيها وأرتبها، ثم خرجت من الخندق متأزمًا .. لقد أحسست مدى الجرم الذي ارتكبته في حق أشرف، وكان السؤال الذي يحز في نفسي، ويكاد يزهق روحي: لماذا نقسو على أنفسنا بضراوة؟ يقتل بعضنا بعضا؟ والقتل أشكال وأنواع .. ولكنه قتل على أية حال. من تطفئ في وجهه الفرحة فأنت قاتله، ومن تطلق في رأسه رصاصة فأنت قاتله .. ويجب أن نضع هدنة أبدية لهذه المقتلة .. على الأقل مع بعضنا، تذكرت آية كريمة تقول: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29]. ولكنني رأيت العكس هو الواقع .. الرحمة للأعداء، والشدة على الإخوان، أيكون هذا ما دفع ببعض الناس أن يقولوا لمن سألهم عشية الهزيمة في العام السابع والستين:

- لماذا انهزمنا ونحن مسلمون؟ .. وانتصر اليهود؟

فكانت إجابته الساخرة المريرة:

- الذين انتصروا يهود، والذين انهزموا يهود، انتصرت يهود على يهود، لا فرق بين الاثنين!!

وقال الذين سمعوا الإجابة إن يهود المهزومة نحن، نحن المسلمين تخلينا عن قيمنا وأخلاقنا وحرياتنا وأتحنا الفرصة للطاغوت، واستسلمنا للكسل والدروشة وصناعة الكلام.

كنت أسيرًا ممزقًا من أجل أشرف، وإن كنت في أعماقي ساخطًا عليه؛ من أجل أمه ومستقبله .. فكرت أن أذهب إلى خندق آخر، أستعير منه موقدًا لأصنع قدحًا من الشاي الذي أحبه كثيرًا، وصرت أتجول بين الخنادق حتى عثرت على الموقد، فرجعت إلى خندقنا ثانية.

***

(14)

شغلنا اليهودي الأسير يوشع عدة أيام، ودارت تعليقاتنا جميعًا حوله وحول كل اليهود، ورحنا نناقش ونحلل ونجادل في القضية برمتها، وكان حواري مع أشرف الذي انتهى بمأساة "نكء الجرح" صورة من هذه الصور الكثيرة التي شهدتها خنادقنا وطوابيرنا المحدودة، وحلقات تجمعنا في الكانتين لشرب الشاي وأكل الحلوى وتدخين السجائر .. وبمناسبة ذكر الكانتين، فإن شايه لا يعجبني؛ لأنه مغلي بالدرجة الأولى، أي ليس طازجا، كما أنه شاي خفيف لا يقنع مدمنًا مثلي .. وهكذا فإنني أكسر القانون من أجل قدح مضبوط يعيد إلى مخي اتزانه وتوهجه.

لم يكد يمضي يوم أو يومان حتى تولى المسئولون أمر يوشع، وتولت الصحافة والإذاعة ووكالات الأنباء موضوع العملية .. اليهود يصفونها بأنها تسلل، ونحن نصفها بأنها اقتحام .. وكالعادة لم يذكر البيان الإسرائيلي شيئًا عن خسائر يهود، ولم يتكلم المسئولون عندنا عن يوشع، ولم نعرف سر ذلك أبدًا.

كنا نمارس أعمالنا العادية، ونتسلى بالحلم الذي انقضى سريعًا .. أعني العبور إلى الضفة الشرقية وقضاء ليلة هناك، وإشعال نيران ملأت الأرض وامتدت إلى السماء، وعن يوشع وعيون يهود المنبعثة من خلال الحصن المتين، والله الصحراء والصمت المهيب، والضيافة الكريمة هنالك .. ولكن شيئًا ما غير هذه التذكارات، نقلنا إلى شيء آخر وجو مخالف.

دخل الرقيب أول عبد الفتاح جمعة بقامته الصلبة وعينيه الصارمتين ووجهه الممتلئ:

- أهنئكم جميعًا ..

- علام؟

كان المتحدث رفيقنا إسماعيل، الذي تحدث ربما لأول مرة، بعد عودتنا، وبعد أن ذهب آخرون لوداع محمود "الأمارة" .. كان كمن يتوقع كارثة حين فغر فاه، وانتظر إجابة الرقيب أول عبد الفتاح، رغم أن الرجل قال أهنئكم جميعا، ولم يقل أنذركم جميعًا .. هذا ما جرى على وجه إسماعيل بالضبط، والسبب، لا نعرفه.

أهنئكم بنزول إجازة طويلة.

كان الرجل منشرحًا، وازداد انشراحه حين رأى الفرحة تطل من عيوننا جميعا .. هتفنا:

- متى؟ .. متى؟

- الآن .. وفورًا ..

- غير معقول.

- الآن .. أقول الآن وفورا .. إنه أمر من قائد اللواء شخصيًّا.

- كم يومًا؟

- عشرة أيام .. ولكن عليكم أن تنزلوا على دفعتين .. اختاروا فيما بينكم.

نظرنا إلى بعضنا، وجلس الرقيب أول عبد الفتاح يساعدنا على الاختيار وترتيب النزول .. وانتهينا، فعرفت أنه يتعين الآن أن أقوم وأستعد للسفر.

كان أشرف من دفعتي، ولكنه لزم مكانه صامتًا، وكان يريد ألا يتحرك أبدًا .. كان مصرًّا – فيما يبدو – على موقفه .. ذهبنا إليه .. حدثناه .. أقنعناه .. أرغمناه .. قلت له:

– سوف أسافر معك، وأبيت الليلة عندكم، لأستمتع، بالجلوس إلى خالتي "حياة".

بدا مطمئنا حين عرف أني أعتزم المبيت في منزلهم، سأكون سندًا له وعضدًا في مواجهة أمه على الأقل، أهدئ من اشتعال الأزمة المتوقعة، إن لم نصل إلى تصفية سليمة للموقف.

حزمنا حقائبنا، وتوجهنا إلى محط القطار الحربي، وهناك انتظرنا ساعة أو بعض الساعة ..

كان العساكر يتوافدون على المحط .. عيونهم تترقب شيئًا ما، كل منهم يترقب ما لا أفهمه، وإن كنت أحسه .. تسمع الآن كل لهجات مصر .. الذي يعطش الجيم، والذي يقلقلها، والذي ينطقها دالًا، والذي حاول أن ينطق كأهل القاهرة فيقع في أشنع الأخطاء المضحكة، ويصبح غريبًا، كالغراب الذي أراد أن يقلد الحمامة، وكل له قضية أو وراءه قضايا، ومعه حقيبة مختلفة الشكل والحجم والمستوى، وحين تنظر إلى هذا الجيش العرمرم الهابط في إجازة، تجزم أنه لم يبق جندي واحد في الخنادق، ولكن حين ترى الخنادق تتيقن أنه لم يغادرها أحد منذ عهد بعيد ..

أعرف أنه يجمعهم الشوق للرحيل .. ولكن في أي اتجاه؟ هذا هو جوهر القضية .. قد يحسبهم الجاهل في شوق للاتجاه غربًا نحو أهلهم وذويهم .. ولكن هذا ليس صحيحًا على وجه العموم، صحيح منهم من يريد الذهاب ليطمئن على أمه وأبيه وصاحبته وبنيه وأشقائه وذويه، ومنهم من يريد أن يفارق الجو الذي يحياه لمجرد الفراق، ومنهم من يريد الحركة نحو الناس الذين يغرقون في الهموم اليومية والمعيشية، ومنهم من لا يريد الرحيل أبدًا، ويريد الاتجاه نحو الشرق .. وصدقني فإنك لو سألتهم الآن وهم واقفون على أرصفة الإسفلت ماذا تفضلون: الذهاب شرقًا أو الرحيل غربًا؟ لقالوا لك، وفي نفس واحد: نحو الشرق إلى الضفة الأخرى .. حيث الله والصحراء والصمت المهيب، يرحبون بكل غريب وضيف عزيز.

كان أشرف، يحدق في هذه الجموع، يريد أن يتكلم، ولكن يعجزه الكلام .. كان موزعًا بين الرغبة في البقاء داخل الخندق، وبين رغبته في لقاء أمه، وتصفية الصدام معها، وحل مشكلته مع هدى؛ خاصة وأن الرسالة الأخيرة من هذه كانت تحمل له معنى: لا مفر من اصطيادك .. أي لا أمل في تفاهمه مع أمه، فكل من المرأتين تريد الاستئثار به، وكلتاهما تقف على طرفي نقيض .. نظرت في وجهه فأشفقت عليه، ثم أشفقت على نفسي، بل لمت نفسي؛ لأني أخذت الفتى - أرغمته - على السفر ليواجه محنته، وهو غير مستعد لمواجهتها أبدًا.

ناديت على بائع كعك .. أخذت كعكتين وأعطيت واحدة لأشرف:

- خذ، من المؤكد أنك جوعان مثلي ..

- لست جائعًا ..
- إنك لم تذق الطعام منذ الصباح.
- ليست لدي رغبة ..
- سوف تكون لك رغبة، رغم أنفك .. كن رجلا وواجه الدنيا بشجاعة، ولا تهرب من قدرك ..

بدا عليه الضيق، وأخذ الكعكة من يدي، وقال في لا مبالاة:

- أشكرك ..

ضحكت وقلت:

- يا أخي .. لا شكر على واجب، نحن دائمًا في الخدمة ..

تجاهل ضحكي وكلامي، وأخذ يقضم الكعكة دون اهتمام بما أقول، تأكدت أنه غير راغب تماما في الكلام، فتركته يأكل الكعكة بدون "نفس"، وأخذت أمضغ كعكتي، وأتأمل وجوه العساكر المختلفة .. كنا جالسين على مقعد مستطيل بدون مسند، وكان بجوارنا، بعض الجنود .. ومن شوقي للكلام تحدثت إلى جاري مباشرة:

- ولا مؤخذة يا دفعة .. نسيت أعزم عليك .. تفضل ..
- أشكرك .. لقد أكلت منذ قليل ..
- من اللواء .. (...)؟
- لا من الفوج (...) وأنت؟
- أنا من اللواء (...) وملحق على (...).

- وكيف الأحوال؟
- تمام .. لهجتك تقول لي أنك من الغربية ..
- لا فرق كبيرًا .. أنا من كفر الشيخ.
- أهلا وسهلا، وأنا من الدقهلية ..
- يعني جيران .. أهلا وسهلا .. أحسن ناس ..

ضحكنا، ورحنا نتساءل عن موعد مجيء القطار وتحركه، ولم نكمل الحوار حتى كان صفيره قادمًا، يؤذن بالرحيل، فجذبت أشرف من ذراعه ومن عالمه؛ لنحتل مكانا في قلب القطار، وبدأ الرحيل ..

***

(15)

تحرك القطار مع أول ضوء، يحمل في أحشائه خلاصة أبناء مصر الفلاحين .. وكان يهتز مختالا بما يحمل في بطنه، كأنه امرأة أوشك موعدها على الولادة، والناس من حولها تستعد بالبخور والفول النابت والأحجبة والأرز باللبن .. وخيل إليَّ تحت جنح الظلام المنتشر على جانبي قطارنا الطويل، أن الناس تنتظر الميلاد في صمت كصمت الليل، لعلهم تعلموا منه الهمس والطول والعمق، فلم نسمع أحدًا يتحدث إلينا، أو حتى يقذفنا بالطوب والحصى .. كان باطن القطار يحتدم في ثورة عظيمة .. اضطراب كبير، بعد مرور أكثر من نصف ساعة، ما زال بعض العساكر يتعاركون معًا من أجل مكان فوق الرف؛ إذ إن الأماكن والطرقات قد شغلت جميعًا، ولم يبق سوى الرف .. المعركة حوله ومن أجله منطقية .. كان الرف يستخدم سريرًا، خاصة في الليل، أما الآن فإن ذلك القول مرفوض تمامًا، يصبح الرف مقاعد فقط .. كل عسكري يجلس بجوار الآخر وتتدلى رجلاه في الهواء إلى أسفل .. تعارك العساكر معًا؛ لأن أحدهم أراد أن ينام ..

- يا عالم .. يا خلق الله .. كنت ماسك خدمة طول الليل، ولم أنم حتى الآن.

- رد أحدهم، وكان شرسًا كما بدا منطقه ولهجته:

- ليس شأننا، قم، وسع لغيرك.

- يا عالم أنا تعبان .. حرام عليكم.

كـان صـوته يتلاشـى مـع موجـة الـضجيج .. انتهـى تمامًـا، وانتهـى الضجيج، وأسفر عن جلوس أكثر من واحد مكان الذي اعتقد أنه سينام .. وراح الهدوء والخدر يسري على جو القطار كله، ولم يعد أحد يتكلم، باستثناء بائع الشاي، أو زميله بائع السجائر الذي يتوقف كثيرًا عند كل مقعد تقريبًا.

كـان زميلي أشرف يجلس بجواري على مقعد استطعنا احتلاله بعد هجوم عنيف؛ إذ قفز من النافذة، ودخلت أنا من الباب، فوجدته قد حجز لي مكانًا معه، وجلس طوال المدة صامتًا لا يتكلم، إلا أن ملامحه كانت تتغير من حين لآخر. وتتبدل من الطبيعية إلى الكآبة إلى الانبساط إلى العكس .. لم أحاول أن أتحدث إليه أو أبدأه الحديث بمعنى أصح، ولكنني وجدت في تأمل خلق الله الذين يرتدون اللباس الأصفر مثلنا خير سلوى وخير عزاء .. كلهم يجرفه الشوق لفعل شيء ما، ولكنهم لا يقدرون، وآخر ما سمعناه أن أحد العساكر؛ ضابطا كان أو جنديًّا - لا نعرف بدقة - خالف الأوامر وظل يطلق رشاشه عبر القناة على بعض العساكر اليهود الذين كانوا يستحمون في الشاطئ الآخر، فكان مصيره عبرة لغيره .. كم تمنيت أن أفعل مثله وليكن ما يكون، ولكني ما قدرت، أنا حامد الشيمي بالطول وبالعرض ما استطعت، كل ما أقوله كان خيالًا؛ إذ وجدت من اللازم أن أخضع للأوامر .. صور لي الوهم أنني أستطيع أن أقاتل وحدي، أصطاد أي جندي يهودي يظهر على الضفة المقابلة .. أستطيع وحدي أن أقضي على أية قوة تظهر هنالك، أمنيتي أن نبدأ الهجوم نحن، ولو مرة واحدة في العمر، ولتكن الخسائر ما تكون .. في الليلة التي انتقلنا فيها إلى

الضفة الثانية كان الفرح الصامت كبيرًا لحظتها، وكنا مشتاقين للموت بأي ثمن، ثم عدنا جميعًا باستثناء واحد .. محمود "الأمارة"، فقط هو الذي غاب ورحل، وحلف أن يبقى ضيفًا هناك بدمه عند الله والصحراء والصمت المهيب!! لم نخسر كثيرا، ولن نخسر، أعطونا الفرصة فقط .. نريد أن نجعلها بعرض المائة والثمانين كيلو مترًا جحيمًا تصطليه يهود، وتعرف أن المصريين ليسوا أرانب مذعورة .. لن تستطيع يهود أن تبني هرمًا من أحذية الجنود المصريين بعد الآن ..

توقف القطار فجأة، فاصطكت عرباته كلها، وأحسسنا بأثر الوقفة المفاجئة، فمالت جذوعنا للأمام والخلف مرات .. واندلقت أقداح الشاي مع بائعه، وتململ أشرف الصعيدي، وبدأ ينسى ما كان يفكر فيه:

- ماذا جرى للقطار؟

- يبعث إليك بتحية المساء.

وابتسمت محاولا أن أذكره بما كان فيه من تجوال فكري ونفسي صامت، وأدرك ما أهدف إليه، فقال شبه معاتب:

- مساه الله بالخير على إزعاجه العظيم ..

- أصول .. أن تحييه أنت الآخر ولو بإزعاج بسيط ..

انبسطت أساريره قليلا:

- يكفي ما نحن فيه من إزعاج .. تريد الحق، لا أريد أن أزعج أحدًا أو يزعجني أحد .. لا ضرر ولا ضرار كما يقول الحديث الشريف.

- ولكنك يا باشمهندس تصبح بذلك رجلا مثاليًّا، غير موجود نظيره الآن .. انظر في مصر كلها فسوف تجد الناس تريد أن تأكل بعضها .. لا يكفيهم يهود التي تريد أن تأكلهم جميعًا .. تعامل مع الناس عندنا في أي مكان سوف ترى صدق ما ذهبت إليه .. اشتر من أي بائع وشف كم سيأخذ منك زيادة على حقه .. اطلب النجدة من الناس .. من أي مخلوق يمر في الطريق، سوف ينظر إليك شزرًا، ويستدير برأسه، ويرمح في عرض الطريق .. قف على أي شباك يبيع التذاكر - لن أذكر الفراخ - أو يختم الاستمارات أو يبيع طوابع البريد أو .. أو .. تجد الزحام والوسطاء والسماسرة، والواقف في الطابور لا يأخذ، والذي لف من الخلف حصل على ما أراد؛ لأنه فتح مخه، وصار ملحلحًا .. أتريد أن أقول أكثر يا أيها المثالي العظيم؟ .. ما كان أشرف يعتقد أننا سنعود للنقاش ثانية، ولكنه وجد نفسه في المعمعة رغم أنفه، وكان الصمت الذي فرضه على نفسه منذ عدنا بعد ليلة العبور قد هيأه؛ بل شوقه لأن يتكلم، ويأخذ فرصته الذهبية في الكلام:

- اقتربنا على الدخول في الحدود الآمنة لمدينتنا العظيمة، وأقول لك بأن ما تذهب إليه لا يمنعني من التمسك برأيي، فأنا لست متدينًا مثلك، ولكنني أعتقد بصحة هذه النظرية لا ضرر ولا ضرار .. ولو طبقناها لأصبحنا أفضل دولة في العالم على الإطلاق .. تعلمت هذا الحديث من خالتك "حياة" - الحق يقال - لقد سمعته ولم يعلق بذهني في حينه؛ إلا لكونه يتكون من كلمتين مسبوقة كل منهما بكلمة لا، وما تراه قائمًا سببه أن

الناس لم تتعرف إلى هاتين الكلمتين بعد؛ لأنهم أصبحوا مفرغين من كل شيء و ...

- ليسوا مفرغين أبدًا .. إنهم يلقنون في كل يوم عشرات الشعارات والهتافات، التي تتحدث عن العدالة وتحث على الحرية، وتحض على التقدم والمساواة ..

تلقف كلماتي كمن ضاع منه شيء وعثر عليه أخيرًا.

- نعم .. نعم .. يلقنون كل يوم .. يلقنون ولكني أحب أن أقول لك: إن القدوة مفقودة .. الذي ينفذ هذه الشعارات غير موجود .. حين قال نبينا عليه الصلاة والسلام: لا ضرر ولا ضرار، كان يطبق كلامه حرفًا حرفًا .. ما رآه أحد يناقض كلامه، أو يأتي بسلوك لا يتفق مع أي كلمة نطق بها.

- أتريد مثلا، أن يكون الناس أنبياء؟

- لا .. أقصد أن يكونوا أناسًا يراعون حقوق بعضهم، وما أعنيه هو أن يكون قائل الشعار أو ناشره قدوة للآخرين .. انظر لهذا الخراب الذي نعيشه، وكان يجب ألا يحدث .. إنه بسبب افتقاد النموذج والقدوة، وكل الباحثين عن الأسباب، يبحثون عنها خارج الإنسان .. منهم من يقول: الخلاص بالعلم، ومنهم من يقول: بالاشتراكية، ومن يقول بالرأسمالية، ومن يقول بالشيوعية مثل صديقتي ومعذبتي "هدى"، ومن يقول بالفاشستية العسكرية التي تمسك البلد بيد من حديد، وتقود الشعب قطيعًا ينفذ أوامر القادة بالإكراه كما نحن الآن ..



سارعت قائلا ومنبهًا:

- هس .. لقد زودتها تمامًا .. هناك من يسمع، فلا تعرض نفسك لداهية كبيرة لا تقوم بعدها أبدًا.

- أحسن ..

ببساطة شديدة كان يرد على خوفي وإشفاقي، فقلت أشاطره:

- متى تدمدم بالرعد .. متى تدمدم بالرعد، ونستريح من كل هذا العناء؟

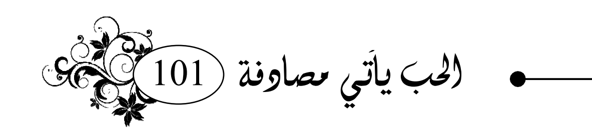
- سوف تدمدم .. كان يتكلم كالواثق الذي لا يصدقه أحد .. سوف تدمدم وتسمع الدنيا كلها صوت الرعد من أقصاها إلى أقصاها .. وسوف يكتشفون الطريق الصحيح .. أقصد نحن ..

وطغى صوت الضجيج - الذي أحدثه العسكر عندما اقترب القطار من المحط - على حديثنا، فقمت أعدل ملابسي، وأبحث عن حقيبتي تحت المقعد، وكذلك فعل أشرف .. وحين توقف القطار أخذنا طريقنا إلى قلب المدينة الصاخبة الهادرة.

***

(16)

كانت سيدة البيت تعمل في خفة ونشاط لم يسبق لهما مثيل



كانت سيدة البيت تعمل في خفة ونشاط لم يسبق لهما مثيل .. كان الفرح يكاد يطل من عينيها، ومع سنها الذي يبدو متأخرًا، فإنها لم تعرف السكون أو البطء، كانت تتحرك كراقصة باليه على خشبة المسرح .. خفيفة رشيقة .. سعيدة بقدوم ولدها مع ولد آخر هو: أنا .. كأمي تمامًا حين تقوم من رقدتها يوم أصل إليهم في الكفر .. تصر - يا عيني - أن تصنع كل الأشياء بنفسها .. مناط الإعزاز والتقدير يكمن في سلوكها هذا.

ليلة أمس لم تهبط إلى الأرض أبدًا، كانت واقفة دائمًا، وأحست أن الدنيا تغيرت على جبين ولدها أشرف .. بدا لي أنها استشعرت ودًّا مفقودًا بينهما بدأ يعود .. ففرحت أنا أيضًا.

في الصباح اقترح أشرف أن نقوم بجولة في القاهرة وعبر شوارعها التي تشوق إليها كثيرًا، مع أنه كان لا يريد أن يغادر الخندق .. ولكن خالتي حياة روعت لهذا الاقتراح، كيف يسمح لنفسه أن يهدر وقته في شوارع القاهرة وأنا معه؟!

ألا تريدني أن أحظى بالجلوس معكما بعد الغيبة الطويلة؟ واستعطفته: طيب .. من أجل حامد الذي شرفنا لأول مرة؟

بادرت على الفور:

- ليست أول مرة .. وأنت تعلمين ذلك جيدًا.

- لا .. أقصد أنك أتيت إلينا هذه المرة ضيفًا حقيقيًّا، أما المرات السابقة فلا حساب لها؛ لأنها كانت لدقائق فقط؟ واسأل نفسك.

- عمومًا، فلست ضيفًا، والبيت بيتنا ..

نزلنا عند رغبتها، وبقينا طيلة اليوم في البيت .. نضحك، ونتسلى ونتصفح الجرائد والمجلات والألبومات الموجودة بالمكتبة، وندير الأسطوانات، ونستمع إلى الراديو الكذاب والتلفزيون الهايف .. لم نطرق الأحاديث التي كنت أتوقعها، وتراءى لي أننا لن نطرقها أبدًا، غير أن هذا التوقع لم يكن صحيحًا.

في المساء التففنا حول المائدة، كانت حافلة بشتى ألوان الطعام، ولكني كنت متشوقًا لرغيف من الخبز الجاف الذي تصنعه أمي في الفرن أبيض مستديرًا كالبدر، وقطعة من الجبن المملح .. وكنت أمني النفس بأن الليل سينتهي سريعًا لأحقق هذه الرغبة.

لم نتكلم في البداية، كل منا كان ينظر في الأطباق المكتظة، ويفكر في أمر هذه الوليمة الفاخرة .. وكانت خالتي "حياة" تنظر بإعجاب بالغ إلى ما حققته في الصحاف الكثيرة المرصوصة في نسق هندسي بديع، وأحسست كأنها تغالب إحساسًا خفيًّا في أعماقها بالقصور رغم هذه الحفاوة البالغة، كأنها تقول معاتبة ذاتها: إنني لم أقم للغيَّاب بكل حقوقهم .. وقد صرنا غيَّابا أو غرباء - كما يصر أشرف – حقيقة، فلا أحد من الناس يستأنسنا، ولا نستطيع – نحن الغياب - أن نستأنسه، كالحيوانات البرية، لم تألف الناس والزحام والضجيج والبحث عن المتعة والرفاهية في أحضان المدينة الهلوك.

ولعل الهيبة من عرض أمورنا الخاصة على الخالة "حياة" كان بفعل الغيبة والغربة، كيف نبدأ حديثا عاديًّا، ونحن قد فقدنا هذه الصفة منذ سنوات الحزن الدامي التي بدأت في منتصف العام السابع والستين .. هناك هالة ترهبنا وتخيفنا، كما نتهيب الكمساري في الأتوبيس والترام والقطار .. نخشاه، ونعمل له ألف حساب؛ فهو أول وآخر شخص يتعامل معنا حين نخرج إلى الحياة المدينة أو نغادرها عقب إجازة ميدان.

لقد تشجعت أخيرًا، وتحدثت إلى السيدة الوقور:

- لم أعرف أخبارك الثقافية منذ زيارتي الأخيرة؟

ابتسمت بحنان ورقة:

- إنها طيبة على كل حال .. لم أكتب كثيرًا .. شاقتني الكتابة عن السيدة زينب، صاحبة المشهد الشهير .. كان لها موقف رائع .. أكثر من رائع، (وتوهجت بعاطفة غامرة) حين ساقها عبيد الله بن زياد مع بقايا آل الحسين إلى دمشق؛ ليقدمهم إلى الخليفة المنتصر معاوية بن أبي سفيان، كانت كريمة على نفسها وعلى آلها، خاصة الفتى الصغير المسمى علي زين العابدين، ولن أطيل عليك فسوف تقرأ ما كتبت في المجلة الذي نشر بها.

- وغير ذلك، ألم تكتبي شيئًا عن الرقص الشرقي؟

ضحكت، وحدقت فيَّ باستنكار تستوضح ما بداخل عيني، ولكني استدركت بخبث:

- أعرف أنك تحبين هذا اللون من الفن؛ ولهذا سألتك فربما أعجبتك إحدى الراقصات، فتطوعت وكتبت عنها.



ثم سكت قليلا، وأردفت وهي تستمع في صمت غامض:

- وقد تكون هذه الراقصة ممن يرفعن اسم مصر عاليا؛ ابتداء من مونتريال في كندا، حتى طوكيو في اليابان، مرورا بالعواصم الأوربية والأفريقية والآسيوية، وقد سمعت أخيرا أنهم يقدمون للضيف العزيز على الحكومة راقصة حلوة وبارعة، ويأخذون السياح على شارع الهرم؛ ليروا أمجاد بلادي؟

وبهدوء حذر وصوت معتدل النبرة رزين، قالت الخالة "حياة":

- لا تنس أن تأكل جيدًا، فالعسكرية لا تقدم لكم طعامًا كهذا؛ لأنهم يحتاجون إلى ميزانية أخرى للجيش. ولكيلا أعطلك عن الأكل، فسوف أقول لك باختصار، أن حبي للرقص كان نزوة منذ الطفولة، لم أعرف لها تفسيرًا محددًا حتى الآن، ربما كانت ميراثًا من عهد الطفولة البريئة، ولكني بعد طول تأمل وبحث، وجدت أن هذا اللون وصمة عار في جبين الوطن، وامتهان لكرامة المرأة، ونفعه أقل من ضرره بكثير، مثل الخمر تمامًا، ولم أستغرب ضحكك وأنت تسألني، ولكن يجب أن أعترف بالحقائق .. نحن في رحلة نبحث فيها عن ذاتنا، وفي رحلة البحث هذه لابد أن تصادفنا العقبات ونصطدم بها، وأحيانًا لا نعرف أنها عقبات أو منغصات إلا بعد حين .. لقد أعددت بحثًا بعنوان الرقص: البريق والمأساة، توصلت فيه إلى حقائق مذهلة حين درست حالة كثيرات من محترفاته .. وأرجو أن تقرأه قريبًا ..

فبادرت قائلا لأخفف من صرامة الحوار:

- آسف يا خالة، لم أكن أقصد أن أسبب لك مضايقة بهذا السؤال العابر، ولكنني فقط أردت أن أعرف أخبارك الأدبية، وأطالع ما كتبت مع أشرف (وأشرت إليه)، خاصة أنه شاعر.

ابتسمت السيدة الوقور، وأحست بزهو حين أشرت إلى ابنها، وأسندت إليه وصف الشاعر .. لقد توهج جبينها ببريق فرحان وكأنها تتخيله شاعرًا عملاقًا، يتردد اسمه على كل لسان:

- لم أتضايق أبدًا .. لقد أسعدني سؤالك، ولقد كنت مؤرقة خلال الأيام الماضية فعلا، بسبب هذا الموضوع، حتى انتهيت من الدراسة التي أشرت إليها الآن، وأنت تعرف سعادتي البالغة دائمًا حين تقرأ أنت وأشرف ما أكتبه، وإن كنت أتمنى أن يصبح أشرف شاعرًا كما وصفته.

نظرت إلى أشرف الذي كان مستغرقًا مع الصحاف المرصوصة على المائدة، كأنه لم يأكل منذ سنين عددًا، ولكنه تجاهل حديثنا فلم يعلق بشيء، وربما لم ينظر .. بدا لي يحاول أن يتجنب مفاتحة أمه في أي كلام؛ حتى لا يتطرق أي منهما إلى موضوع "هدى" أو غيره. كان متحسبًا للغاية، وأحسست ميله الغريزي إلى السفر معي إلى " الكَفر "؛ ليقضي بقية الأيام العشرة، ويرى هنالك ماضي أسرته، ومنزل جده لأمه، خاصة أنه لم يذهب إلى "الكفر" منذ كان صغيرا .. فيحقق بذلك هدفين: أن يتجنب المواجهة مع أمه، وأن يقضي إجازة طيبة دون أن تلاحقه "هدى".

اقترحت على أمه أن تتركه ليسافر معي:

- إن شاعرك يا خالة يحتاج إلى خيال وجو رومانسي؛ ليستطيع أن ينظم قصائد بليغة، وأقترح أن تسمحي له بالسفر معي إلى "الكفر"؛ ليقضي معي بعض الوقت.

ظهر الضيق على وجهها، وبدا لها أني أنتزع منها فلذة كبدها، وبدا هو سعيدًا، لدرجة أنه توقف عن تناول الطعام، وراح يترقب نتيجة الحوار ..

وبعد مفاوضات شاقة، استخدمت فيها كل أسلحة الإقناع، رضيت السيدة الطيبة، وتركته ليسافر معي، ويرى مسقط رأسها، وبقايا أهلها، ويشم رائحة الأحباب، ويحمل لهم السلام والتحيات، وبعد الانتهاء من الطعام، قلت لها ضاحكًا:

- وليمة دائمة.

ضحكت هي الأخرى، وعبرت عيناها عن حنان عميق.

***

(17)

في ضوء النهار سافرنا إلى كفر المحاريم، وكان اخضرار الأرض على جانبي الطريق بشيرا بالأمل .. أحسست نوعًا من التفتح النفسي حين رأيت البساط السندسي الأخضر يملأ أرجاء الدنيا، ونحن في اتجاه الشمال نحو كفر المحاريم .. تفتحت نفسي ليلة انطلقنا في التيه تحت جنح الظلام؛ لنلتقي في عملية محدودة بقوات "يهود"، وازدادت تفتحًا هذا النهار الجميل المشرق .. رأيت الخير في باطن الأرض رغم الأسى العميق، الذي يظلل سحنة أشرف الصعيدي .. كان ينظر إلى هذه الخضرة في ذهول، ولم يكن راغبا في الكلام كعادته في الفترة الأخيرة، ولكني لكزته في ذراعه؛ لأنتشله من تهويماته الرومانسية:

- انظر في هذه الدنيا .. أفق يا شاعر آخر زمن .. هنا الشعر الحقيقي الذي يتكلم دون وزن أو قافية .. على فكرة، شعرك يا أشرف بدون أوزان، أو قواعد على الإطلاق، أو إنك تريد أن تستغفل أمثالي حين تقرأ لهم شيئًا من شعرك، فيصدقون أن ما تقوله شعرًا؟

فغر فاه متعجبًا، واندهش لتتابع كلماتي .. أحس بمفاجأة حقًّا، فقال محاولًا أن يرفع صوته من خلال الهدير الطاغي الذي يحدثه صوت القطار:

- ومن قال إني شاعر؟ لقد تبلدت يا سيادة الأستاذ حامد الشيمي زعيم كفر المحاريم وما حولها.

باغتني بوصفه الأخير .. فقلت له على الفور:

- تريد أن تتخلص من تهمتك، فتهاجمني بتهمة أخرى؟ من قال لك إن حامد الشيمي زعيم كفر المحاريم؟ وما هذا التقريظ أو هذا التوصيف: سيادة الأستاذ؟

وبسرعة كان يرد:

- أنت سيد، وكلنا "سيد في ظل العلم" هذه واحدة (وضحك) .. أما أنك أستاذ فهذا أمر مفروغ منه؛ لأن أكثر من مائتي تلميذ في مدرستك ينادونك أستاذًا، وأنت زعيم كفر المحاريم رغم أنفي وأنفك كما حدثتني أمي مساء أمس ..

- وماذا قالت أمك؟

قلتها بلهفة؛ لأني لم أسمعها تتحدث معه، فاطمأننت، أو استرحت أنهما لم يتكلما أو يتواجها، وفرحت لتجمد الموقف تمامًا.

قالت إنك زعيم .. فأنت أول أو من أوائل من تعلموا في الكفر، وحدثتني أن أهل الكفر، ومن بينهم دار الشيمي، يعدونك زعيمًا في التحدث والتفاهم باسمهم مع القرى المجاورة ..

- متى قالت ذلك؟ وأين؟

- بعد أن ودعتنا لتنام بعد العشاء، نادت عليَّ، وانفردنا لنتكلم، وبدأنا الحديث عنك ..

- وأنهيتما الحديث عن هدى؟

وضحكت منتظرًا أن يستطرد، ولكنه تردد، ثم استجمع نفسه وواصل الكلام:

- تصور يا حامد أنه كان لابد أن أتحدث مع أمي منذ زمان؟ لقد كان صمتنا المتبادل هو آفة العلاقات بيننا .. لقد ضخمنا الأوهام التي صنعها الصمت .. كل منا راح يفسر الأشياء بطريقته الخاصة، حتى ظنتني قد أصبحت عربيدًا وعاقًّا وأشياء أخرى .. وظننتها متغطرسة ومتزمتة وتكرهني .. ولكنني فوجئت بشيء آخر تمامًا ..

وصمت لحظة، أخرج فيها منديله ليمسح على فمه، ويفرغ شيئًا من أنفه، وواصل حديثه:

- لقد وجدتها متلهفة أن تتحدث إليَّ .. مجرد التحدث يا حامد .. وحين تركت لها نفسي، أخذت تسمعني؛ بل تعطيني ودًّا وعطفًا وحنانًا لم أكن أشعر بأي منها من قبل.

- وتحدثتما عن "هدى" بالطبع.

كنت أريد أن يتحدث عن هذا الموضوع قبل أن يفلت مني، ونتوه في القرية مع أحاديث أهلها الطويلة والمختلفة، وهمومهم التي لا تنتهي ولا تحصى عجائبها، فقال لي وهو يشعر بروح جديد:

- حين قالت لي إنه لا يشغلني سوى سعادتك فقط، ولقد رسمت حياتي منذ مات أبوك، لأربيك وإخوتك .. لقد كبرت وأنت حر فيما تفعل، ولكنني أمك على أي حال، أود أن تضع خطواتك على الطريق في موضعها الصحيح .. لا أريد أن تزل قدمك، واسمح لي يا ولدي أن أقول لك بأن عمري يتيح لي أن أزودك ببعض الآراء، إذا قبلت؛ لأن ضميري – ولو لم أكن أمك – يحتم عليَّ أن أقولها لك، وأنت ثانيًا حر فيما تفعل.

و استطردت تحدثني عن همومها الخاصة .. قالت لي إن الحكومة تحاربها، والرقابة مزقت قلبها مع تمزيق أفكارها .. لم تستطع أن تنشر فكرة كاملة، وكل ما سمح به بعض الأفكار الهامشية التي لا تتناول صميم الفكر الذي تعتنقه وتنذر حياتها من أجله .. لقد أغلقوا مجلتها الشهرية أكثر من مرة .. في يوم أصدروا قرارًا بتعطيل مائة مطبوعة أو أكثر، ولم تفهم لماذا فعلوا ذلك، لقد مزقها هذا القرار تمزيقًا، وأحزنها حزنًا عميقًا، وتخلصت من هذا الحزن قليلًا حين أرسلت بعض ما تكتبه إلى عاصمة عربية تتيح حرية النشر لكل الأفكار، حينئذ أحست ببعض الراحة .. ولكنها مازالت تعاني ..

- ولم تتحدثا عن "هدى"؟

- لماذا تلح على هذا الموضوع؟ إنه موضوع تافه!

- عظيم جدًّا .. لقد أصبح الموضوع المهم تافها .. لقد تغيرنا حقًّا .. أهنئك يا باشمهندس.

- ليس الأمر كذلك .. إن موضوع "هدى" لم يفرض نفسه موضوعًا رئيسًا، ولكن الموضوع الأهم، كان تصفية الجو وتنقيته من الغيوم والشوائب، وقد نجحنا في هذا، أما "هدى" فكان أمرها هينًا؛ إذ اتفقنا على أن سلوكها لا يتفق مع سلوك "آل الصعيدي" .. وهو ما تأكدت منه، بل اقتنعت به منذ مدة.

- وما العمل إزاء إلحاحها المستمر .. أعني إلحاح هدى وملاحقتها لك؟



رد ببساطة:

- لقد تكفلت هي بالموضوع، وقالت لي: اترك لأمك الأمر، وسوف تحل المشكلة بنفسها، وقد اطمأننت إلى كلامها ..

- وماذا تظنها فاعلة؟

- لست أدري تمامًا .. ولكني أشعر بثقة كاملة في تصرفها.

- ألا تخشى أن يحدث تصادم بينهما؟

تساءلت وكأني أحس كارثة قادمة بين امرأتين تتنازعان رجلا، ولكنه كان يتحدث بثقة .. وله الحق في هذه الثقة؛ فأمه - خالتي حياة امرأة - حصيفة، ولها من التجارب ما يؤهلها لمواجهة الأمور بحكمة واتزان، ولو افترضنا أن "هدى" نجحت نجاحًا جزئيًّا محدودًا، فإن خالتي حياة سوف تنجح نجاحًا كليًّا .. ولكني تصورت أشرف في ذهني: متهمًا وضحية في كل الأحوال .. لقد أخطأ وأوقعته "هدى" .. ولكن سقوطه كان مثيرا للأسى والشفقة.

كان الوقت يمضي سريعًا، مغلفًا بشيء من البهجة .. أحسه كلما عدت إلى كفر المحاريم، وسعدت لأن أشرف سيقضي الإجازة معي، ويتعرف إلى جذوره من جديد.

توقف القطار، وركبنا سيارة الأجرة، انحشرنا فيها، وتعلق آخرون على جوانبها وتسلقوا أعلاها، وسارت بنا كزفة مرشح في الانتخابات تثير التراب والغبار .. تأفف "أشرف"، فقلت له:

- في القاهرة يتعلقون على باب الأتوبيس، ولكننا في الأرياف لا نترك مكانًا في السيارة داخلها وخارجها .. نحن أكثر تقدمًا على أية حال. وإذا كان الأتوبيس عندكم يمشي على طريق مرصوف فسيارتنا تمشي على طريق ترابي بكر؛ وبذا أيضًا نضيف إلى مآثرنا شيئًا يفوق مآثر القاهرة، وإذا كان روجرز قد أوقف القتال بمبادرته ليلة أمس، فإنه لا يستطيع أن يوقف القتال بين كفر المحاريم وأي قرية تعتدي عليها .. وسوف أجعل عم رضوان يحكي لك عن كثير من معارك كفرنا المجيد ... و ...

- اسكت يا أخي .. كفى .. ليتني ما أتيت ..

- تحمل يا باشمهندس .. العبد لله يسافر يوميًّا هكذا حين يذهب إلى عمله .. أقصد أيام كنت موظفًا في البرية قبل أن أرتدي اللباس الأصفر.

- كان الله في عون "كفركم" المحترم.

توقفت السيارة، وانقشع عنها الغطاء البشري، فظهر سطحها، وبانت جوانبها، وأخذنا طريقنا إلى دار آل الشيمي.

***

(18)

في الطريق إلى "دار الشيمي"، هبت علينا رائحة "الكفر" بكل ما فيها من فرح وشجن، وكانت السعادة تطفو من عيني أشرف، بعدما رأى رحابة القرية وصفاء جوها، وطيبة أهلها .. ما تركنا أحدهم إلا وسلم علينا، وعزم علينا، وعتب علينا .. القسم بفرض ذلك في القرية، ويحتم أن يتصارح الناس بكل ما في صدورهم، وحين سألني أشرف عما يشاع عن خبثهم، قلت له:

- فيهم بعض الخبث .. هذا صحيح، ولكنه الخبث الذي يتعلق بالحرص على الذات من الذوبان والضياع .. لقد علمتهم السنون أن الثقة المطلقة فيما يتعلق بالذات شيء خطير، وتراهم يترددون أكثر من مرة قبل الإقدام على اتخاذ قرار .. دع أحدهم يجعلك تقرأ له خطابًا آتيا إليه من قريب أو صديق، فإنه يحفظ ما قرأته بسرعة مذهلة، ثم يعرضه على غيرك؛ لاعتقاده أنك ربما جاملته، فأخفيت عنه خبرًا سيئًا ورد في الرسالة، ومن المفارقات الغريبة أنك قد لا تستطيع قراءة كلمة غير واضحة، ولكنه يفاجئك بأنه يعرفها جيدًا .. هكذا أهلي .. لهم قوانينهم وأعرافهم التي أفهمها جيدًا.

لم يسمع أشرف شيئًا كهذا من قبل، ولكنه كان متشوقًا ليعرف المزيد عن دار أمه، أو جده لأمه، وكان يتمنى أن يرى عم رضوان وأسرة حامد - أسرتي أنا - ويركب حمارًا، ويسهر عند الساقية، ويرى كيف تشوى الذرة في

الحقل، أو على رأس الحقل، ويأكل أرزًا وبطًّا، وفطيرًا وجبنًا، وخبزًا مقددًا وقشدة .. ويرى "البتاوي" يشرب شايًا أسود في أكواب من الصاج. قلبي عليك يا "أشرف" في هذه القرية المسكينة الملتفة بملاءة من الظلام – كما قال أحد الكتاب – والملتفة بالأسى أيضًا .. كيف يتسنى لك أن تأنس إلى هذا الجو وتلك الطبيعة، وأنت الذي تخدش وجهه شمس القرية؟ ولكن لعل العسكرية قد غيرتك لتتكيف مع كل الأجواء .. إنها غيرته فعلا، ولست أدري اتجاه التغيير على أية حال.

قبل أن ندخل "دار الشيمي" كانت الأخبار تسبقنا إلى هناك كدوي الطبول، فخرجت الحارة على الجانبين تنتظر الفارس القادم من الغربة، لترحب به وتستضيفه إذا استطاعت، بيد أن النافذة المعهودة، قد انفتحت ونحن في أول الحارة، وكان لابد أن نعرج على ساكني البيت .. طال العهد، وتوهج الشوق، ولابد من السلام والكلام:

- أهلا وسهلا .. شرفت ونورت، ومرحبًا بضيوف مصر.

- كانت أم زينب تهتف فرحانة، وترحب بضيوف مصر – تقصد أشرف – وجاءت في أثرها فتاتها خجولة باسمه، تسلم وترحب أيضًا وكان الإصرار كبيرًا على أن تستضيفنا الأم؛ لنتعشى، وبرفق اعتذرت.

- من أجل الأستاذ – تقصد أشرف؟

كانت ترجو، ولكني أصررت أن نذهب، وفي طريقنا اصطدمنا بالرجل العجوز الصابر، يجلس متربعًا أمام الجمل، ويتشاغل بحبل يفتله، أو شيء كهذا .. قد يكلمنا، ولم نكلمه، وانصرفنا تودعنا السيدة وابنتها:

- مع السلامة، ونود أن نراكم غدًا ..
- إن شاء الله.

وكانت العيون تودع حتى احتضنتنا "دار الشيمي" الحبيبة.

هنا يهدأ القلب، وينتهي السفر .. يتمطى الزمان، ويتثاءب العمر، وأنت أنت، لا حزن الليالي نال منك، ولا فرح الأيام فاض عليك .. وأنت أنت .. شيقة الحديث، عبقة الشذى، سخية اليد، كريمة السلوك، وفي الغربة نهتف بك فقد طال العهد وتوهج الشوق .. لا تسأليني من أنت؟ فأنت أنت محفورة في ذاكرة الأيام والسنين الطوال .. أنت أنت، مزيج شامل: دار الشيمي، زينب، أم حامد، مصطبة عم رضوان، الحمار الأسود، منصور الشيمي، أهل الخالة "حياة"، الحارة، "الكفر" .. أنت أنت ..

ولو كان "أشرف" يعرف كيف تكون الأماكن فرسا نرحل عليها، لعرف كيف سافرت على ظهر كفر المحاريم في السنوات المهزومة .. ولعلم أنّ روجرز سيتوقف عند الجبهة، ولن يتوقف عند كفر المحاريم؛ لأن كفر المحاريم ترحل دائمًا ولا تتوقف .. لقد قررت كفر المحاريم أن لا تعترف بهذه المبادرة التي قدمها وزير الخارجية الأمريكي، ولن تقبل وقف إطلاق النار .. ولكن من يستطيع – يا أنت – أن يخالف الأوامر؟ لقد تعودنا أن نؤمر فنسمع ونطيع، ما فكرنا يوما أن نخالف، أو نعترض؛ لأن المخالف أو المعترض يعرف الفندق المفضل الذي سينزل فيه، ربما يشبه "هيتلون" أو

"شبرد" أو "سميراميس" أو "شيراتون"، ولكن هذا الفندق مكانه الطبيعي دائما وراء الشمس .. الرحيل قائم، يا أنت ولابد منه لكي نصبح ضيوفًا على الله والصحراء والصمت المهيب؛ فهم يرحبون بكل زائر، خاصة لو كان مثلي يمتطي صهوة "كفر المحاريم"، ويروي الحكاية القديمة.

مكر مفر مقبل مدبر معًا .. كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويا جلمود الصخر انحط في التيه.

رويت الحكاية لأشرف الذي كان ضيفي .. استأثرت به دون أهل أمه، وكان يستعد للنوم معي في حجرة خاصة، متخطين أوامر السيدة الفاضلة "أم حامد" .. استغرب أشرف الحكاية، وقال:

- لقد كان شاعرًا لاهيًا، ويذهب من كثرة الفراغ ليصطاد غزالا وحشيًّا أو آدميًّا؟

- كان يومئ بكلمته الأخيرة إلى غزوات الشاعر مع الجنس الآخر، وربما كان يعبر عن مكنونه هو، وأشواقه هو ، ولكني قلت له:

- كانت أم زينب تهتف فرحانة وترحب بضيوف مصر



- لقد كان شاعرًا شجاعًا .. أقصد رجلا .. لقد سمع عن مصرع أبيه وهو يلعب شيئًا كالطاولة أو السيجة، فنظر إلى محدثه وهو ثابت الجنان، ولم يزد على أن حرك عينيه، وواصل اللعب .. ثم ..

- ثم ماذا؟

- أنت شاعر وتعرف بقية القصة.

- صدقني، فأنا لا أعرف كل ما يتعلق بالشعراء ..

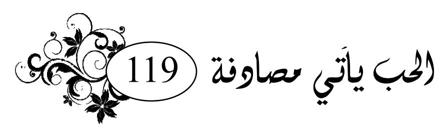
- لقد أكمل الشاعر لعبه، ثم رحل على ظهر جواده المكر المفر المقبل المدبر .. ونادى يا لثارات حجر - اسم أبيه - اليوم خمر وغدًا أمر، ثم مضى يكر ويفر حتى استراح أخيرًا .. حتى فرض هو وقف إطلاق النار، بعد أن أطلق هو النار .. لقد شفى نفسه وأبرأ سقمها حين استطاع أن يعيد أباه بثمن غال، ثم .. ثم واصل لعب الطاولة أو السيجة .. أفهمت يا شاعر آخر الزمن؟

كان "أشرف" يستمع فاغرًا فاه، دون أن ينبس، وأنا أرحل فوق ظهر "كفر المحاريم" عبر الأرض المقهورة، ولكن أشرف فاجأني، وكان يرتدي لباس النوم، ويتأهب للنعاس.

- ولكن الشاعر - شاعر أول الزمن يا سيد حامد - كان حرًّا، وكان يستطيع أن يفعل، وأن يقول قبل أن يفعل، أما اليوم فصرنا نفعل .. نرغم أن نفعل .. قبل أن نقول .. ألا ترى أننا نظلم أنفسنا كثيرًا؟!

نظرت إليه، لم أعلق، كنت أرحل، وأتابع الرحيل فوق ظهر "كفر المحاريم"، وأتمنى أن أواصل الرحلة حتى ألتقي بالله والصحراء والصمت المهيب!

كثيرًا ما نجنح بأفكارنا على صخور صلدة، تكاد سفائننا تتحطم عليها، وإني لأحمد الله أنني هنا، أقصد خارج الخندق، وأستمع إلى ما يقوله روجرز، وينفذ المسئولون اقتراحه بوقف النار، بإطفاء النار .. لو كنت هناك، في الخندق، لمت يا حامد وإني لأسأل نفسي: هل يئس الناس من الجهاد؟ هل أضناهم الصمود؟، لماذا يخافون؟ .. لماذا؟ وبكى أشرف على



غير توقع .. فاجأني بكاؤه .. كان مندفعًا كما لم يفعل من قبل .. أحسست أنه يبكي أشياء كثيرة: روجرز، وقف النار، هدى، خالتي حياة مرعي، طموحه، قسوة الحياة العسكرية، شوقه للقول والفعل، أمله في الخلاص والسكينة ..

تركته ينزف دمعًا غزيرا .. قلت في نفسي: فليسترح، وليغسل وجدانه بقطرات من الدمع الهتون .. إن لحظة ضعف قد تنقله إلى مرحلة من القوة والثبات واليقين .. بينما كنت أرحل فوق ظهر "كفر المحاريم"، كان "أشرف" يستسلم لنوم عميق، وصمت عظيم يخيم فوق الكفر ودار الشيمي جميعًا، فاستسلمت بعد حين لسبات أكثر عمقًا.

***

(19)

في القرية تصبح معالجة القضايا والمشكلات ذات طعم خاص؛ فهي مفعمة بعبير المعادلات الاجتماعية والقيم الأخلاقية السائدة فيها .. وحينئذ يتعين على من يتصدى لها أن يضع هذه العلامات وتلك القيم في اعتباره، بل يكون عارفًا كيف يحلها، ويأتي بنتيجة صحيحة ..

لم نستطع أن نلتفت خلال إجازتنا إلى شيء آخر سوى قضايا "كفر المحاريم" ومشكلاتها، حتى ما كان متعلقًا بذواتنا، فإنه يتحول إلى قضية عامة، تستقطب اهتمام الناس جيمعًا في الكفر ..

كان الصباح الأول لوجودنا في الكفر مفعمًا بكثير من الأحداث، وكثير من الحركة..

توجهت القرية بقضها وقضيضها إلى مدرسة "كفر المحاريم"؛ للتصويت على أعضاء الجمعية التعاونية الزراعية، وكان الصراع على أشده بين المرشحين .. كل فريق يبذل قصارى جهده للسيطرة على سير الأحداث. والهزيمة في الانتخابات تعني إعلانًا جماعيًّا بسقوط المرشح على كافة المستويات: اجتماعيًّا وأخلاقيًّا، وسياسيًّا بمفهوم القرية؛ لذا فقد كانت المنافسة عاصفة عاتية، تدمر كل ما تواضع عليه الناس في "كفرنا" حمال الأسية!

كان آل "المندلاوي" يخوضون المعركة باستبسال وضراوة، وكانوا يعتقدون أن سقوطهم هذه المرة، يعني نفيهم من مجتمع القرية نفيًا شاملًا ..

فهم يعلمون أن الكراهية في الأعماق رابضة، وأن الناس جميعًا يتلهفون على أنباء سقوط مرشحهم في المساء، ساعة إعلان النتيجة، وإن كان القوم يدارون .. خبثهم أو خوفهم يجعلهم لا يعبرون عن مشاعرهم في مواجهة وصراحة، ولكن فيما بينهم يزيحون الأستار عن كل ما خفي.

تحرك آل "المندلاوي" في شوارع القرية وحواريها وأزقتها .. يستعطفون، ويرجون، ويهددون، ويرغبون ويرهبون، حسب الظروف، ووفق ما يفرضه المنطق وتحتمه اللحظة .. كان منظرهم مثيرا، وكانت أعماق الناس أكثر إثارة بما يضطرب داخلها من مشاعر الخوف والكره والسخط .. كانوا يعرفون تاريخ آل "المندلاوي" وأساليبهم، وكم شربوا من كأسهم المرة حتى كرهوا الحياة!! .. وكأس "الجمعية" من أمر الكئوس في تاريخ "كفرنا" حمال الأسية. وما فعله "محمود المندلاوي" الذكي الخبيث، الذي يعرف القراءة والكتابة بصعوبة، ويجيد المناقشة متفوقًا بذلك على جميع الفلاحين أو معظمهم، حتى وصل إلى عضوية الجمعية المشتركة، بالمركز، فيسافر أغلب أيام الأسبوع إلى هناك، ويقبض كثيرًا من المكافآت، وله معارف في بنك التسليف والمستشفى، والشرطة، وأعضاء الاتحاد الاشتراكي، والمحامين، وخاصة الكتبة الذين يعملون معهم .. ما فعله "محمود" ما زال محفورًا في ذاكرة الفلاحين ولا ينسونه، ولكنهم لا يبينون .. لقد أقنعهم بأنه ذو حظوة وسطوة يستطيع أن يفعل ما يريد، يخدم من يريد، ويذل من يريد؛ لأن رئيس الجمعية والمهندس والمشرفين على الجمعية من الداخل والخارج في جيبه .. بالإضافة للناس الذين هم فوق .. وقد أكدت الأيام ذلك حين انهالت عليه "الهدايا"، يدفعها الناس ليحلوا مشاكلهم، مع

تقديم أسمى معاني الطاعة والاحترام لمحمود المندلاوي وآل المندلاوي جميعًا ..

وكان المرشحون في الجانب الآخر، لا قيمة لهم، أي لا تأثير لهم يذكر، فهم مجرد ستارة لإكمال عدد الأعضاء في مجلس الإدارة الجديد .. لم يكن فيهم منافس خطير، أو فيه شيء من الخطورة على المندلاوي إلا إبراهيم عرام، وهذا دخل بأمر عائلته؛ حتى لا يتركوا المجال واسعًا وفسيحًا أمام عائلة المندلاوي يبرطعون فيه وحدهم .. على الأقل يحافظ على حقوق آل عرام التاريخية، وحتى يمتد الجاه العرامي في كل الاتجاهات، ومع أن الكراهية كانت عميقة بين العائلتين؛ لأن عرام تعتبر نفسها أصل البلد، والمندلاوي طارئين، إلا أن المنافسة كانت محصورة بين القرية من ناحية، ومحمود المندلاوي من ناحية أخرى، وكان الخوف والتوجس والترقب متبادلًا بين جميع الأطراف.

وعند الظهر سرت شائعة بين الناس أن أعضاء لجنة الانتخابات على اتصال "بالمندلاوي"، وأنهم موكلون بإنجاحه مهما كانت الظروف، وقد استدل من تناقلوا الإشاعة على ذلك، بما يعده "المندلاوي" لأعضاء اللجنة من وليمة فاخرة وعناية فائقة.

وتأكدت تلك الملاحظة عندما خرجت نسوة من دار المندلاوي يحملن "الصواني" المكتظة بأشهى ألوان الطعام.

وكان أتباع المندلاوي لا يكفون ولا يفترون عن متابعة نشاطهم الكثيف والمستمر في العمل العلني أو السري .. الدعوة لانتخابه، وتوصية

الناخبين بالإدلاء بأصواتهم في جانبه؛ لأنه خادمهم، الصغير قبل الكبير، وابن البلد الذي يجلس مع الجميع، ولا يدعي أنه فوقهم؛ قدحًا في آل عرام، ويستطيع الجميع أن يعتمدوا عليه في حل مشكلاتهم، أما الموكلون بالدعوة السرية، فكانوا لا يظهرون نواياهم ولا يتكلمون .. كان معظمهم من الطلبة والذين يعرفون القراءة والكتابة، فيترصدون للذاهبين إلى مقر اللجنة، ويتخيرون الأميين ويتطوعون بكتابة الأسماء لهم في ورقة؛ ليقدمها هؤلاء إلى أعضاء اللجنة الذين ينوبون عنهم في تدوين العلامات .. كان الدعاة السريون يكتبون أول اسم بالطبع محمود المندلاوي والأسماء الأخرى المساندة له، والناخب الأمي يملي أسماءه التي لا تدون بحال من الأحوال.

كان الصراع عاتيًا وعنيفًا، وأهل القرية يشعرون أن الأمل قد اقترب ليحتل المخلصون منهم أماكن القيادة، ويستريحون من العناء الأبدي الذي فرض عليهم من آل المندلاوي "الطارئين" وآل عرام "أولاد الأصول"! وكلما اقترب المساء، كانت صدورهم تهتز وتختلج بين اليأس والأمل والشك واليقين .. معظمهم كان متأكدًا أن نهاية المندولاى قد اقتربت، وأن الحين قد حان بعد ساعة أو ساعتين لتنتهي ملحمة العذاب في كفر المحاريم، أو جانب منها على الأقل، وكان بعض الناس يدرك - ربما بحاسته اللا واعية - أن الأمل بعيد جدًّا، رغم ما يهتف به الناس في أعماقهم، ويصرون عليه، وأن النتيجة لن تختلف عما سبق في الانتخابات الماضية.

كانت الشمس تميل نحو المغيب، تتوهج بالحمرة، ويأخذ الأفق شكله الأرجواني، الذي يتحول إلى لون دام عند الغروب، وكانت أفكار الناس متوهجة كما الشمس، ينتظرون لحظة إعلان النتائج على أحر من الجمر؛ لينطلقوا نحو القرية، ويلفون أرجاءها، معلنين النصر والظفر.

غربت الشمس .. غطست في ماء النيل .. لم يبق إلا آثار شفافة بعد المغيب، تنبئ عن قدوم جحافل زاحفة لا تبقي ولا تذر .. ثم ذهب الشفق وجاء الليل.

كانت اللجنة منهمكة في فرز الأصوات على ضوء "الكلوبات" .. معظمها آت من دار "المندلاوي"، وهذه ملاحظة المتشائمين في القرية، وكانت الآراء والمناقشات تتراوح بين الحديث المقتضب، والحوار المسترسل، والتعليقات اللاذعة والساخرة، وبعضهم يتحدث بأمل وثقة عن النصر المبين.

والظاهرة الملفتة للأنظار أن بعض المتشائمين، كان يلزم الصمت حين يرى أحدًا من الموالين للمندلاوي يحوم حول الجلسة .. وكان المتأمل لما حول المدرسة يعتقد أن البلدة لم يبق بها أحد داخل داره .. كلهم هنا .. حتى صاروا كتلة واحدة متصلة الأجزاء والجزيئيات، من يؤيد ومن يعارض، والكل متشوق وفي لهفة لسماع النتيجة.

انقضى الهزيع الأول من الليل، وقد نام الصبية على الأرض وتحت السماء؛ لأن النوم في الخلاء يستحب صيفا في قريتنا، وداعب النوم بعض الناس، ولكنهم كانوا يغالبونه بكل ما أوتوا من قوة، ولم تعلن النتيجة حتى



الآن .. ازدادت الشائعات وكثرت الأقاويل، وكثر عدد المتشائمين عن ذي قبل، وإن كانت الأغلبية ما زالت مع التفاؤل، وبعد فترة خرج رئيس اللجنة ليعلن أمام الناس عن فوز "إبراهيم عرام" بأغلبية الأصوات، وفرح الناس أن الأول لم يكن المندلاوي، ثم عدد بعض الأعضاء، وأيقن الناس أن الآخر قد ذهب إلى الجحيم، ولن تقوم له قائمة .. ولكنه – يا للهول – كان آخر من نطق باسمه رئيس اللجنة ناجحًا، بأقل الأصوات!.

ذهب الفرح، وطغى الحزن، وانكسر الناس في كفر المحاريم، وغمرهم صمت عظيم لم يقطعه سوى هتافات وزغاريد من مؤيدي ومؤيدات "المندلاوى" المنتصر في معركة كسبها هو، وخسرها الناس أجمعين ..

حين شهد "أشرف" هذه الموقعة لم يعلق إلا بكلمات قصار: "لقد كنت مع المتشائمين، وخالفتك الرأي، يا حامد، وها أنت ترى ما تحقق، فما زلنا في "محلك سر"، والذي انتصر ليس "المندلاوى"، وإنما هو شيء آخر رهيب: مزيج الخوف والجهل ...".

وسكت أشرف، ولم أتكلم؛ لأننا كنا في الهزيع الثالث من الليل!

***

(20)

كان حديث القربة طوال إجازتنا يدور حول انتخابات الجمعية بالدرجة الأولى، ما فتئوا يذكرون حوادث يوم الانتخاب، ويحللون كل ما حدث فيه، ويردونه إلى أصوله البعيدة والقريبة .. كانوا يتكلمون بقهر، ولكنهم كانوا يستشعرون نوعًا من تأنيب الضمير .. لقد شاركوا في صنع ما حدث، سواء اعترفوا أم لم يعترفوا .. إنهم مسئولون على أية حال.

ولم تكن دار الشمي بعيدة بحال عن حادث الانتخابات، فقد كانت الأسرة جميعها، تعقد أملًا كبيرًا على هذه الانتخابات، فتتخلص من المضايقات والمساومات والمهازل التي تحدث لهم على يد "المندلاوي" وأتباعه، خاصة حين يأتي اليوم الذي ينتظرون فيه ثمن القطن بالذات، فيجدون مالهم شيئًا يثير الحسرة والغضب .. في الموسم الماضي قبضوا ثلاثين جنيهًا من أقطان ثمنها ستمائة جنيه! ..

قالت أمي:

- كان عليكم أن تتصدقوا بها على الغلابة قبل أن تدخلوا البيت. وربنا يعوض .. عليه العوض .. ضاع التعب والعذاب والانتظار نظير ثلاثين جنيهًا .. من الخواجة للمندولاي .. من النار للنار .. فوضنا الأمر إليك يا رب ..

ساعتها لم يستطيع أحد أن يتكلم .. يحلف المندلاوي بالأيمان المغلظة – وأولها الطلاق – أنه لا يتدخل، ولا علاقة له بما حدث، والمشرف يقول:

هذه إمضاءاتكم تشهد بما أخذتموه من سلف، وما صرف لكم من أسمدة وبذور ومقاومة .. تنظر العيون في استسلام حزين، ويخيم الصمت، ولا يستطيع أحد أن يتكلم؛ فالخض في الماء لا يعطي سمنًا .. لا فائدة .. محنة وربنا يتولانا ..

كان "أشرف" يتجول معي على الزراعية، وينعم بمشاهدة الحقول الخضراء، وكان يسرح بنظره إلى بعيد؛ لعله يفكر في خالتي "حياة" أو الآنسة "هدى"، أو أشياء أخرى .. كنا نمضي صامتين؛ كل منا يفكر في عالمه، ويحرص على أن يحترم اتفاقية السلام مع الآخر؛ فلا يزعج زميله باستفهام أو كلام .. ولم يكن تفكيري إلا مزيجًا مشوشًا مخلوطًا بما حدث في الجمعية، وخالتي حياة، وأم حامد، ومنصور الشيمي (العفريت الصغير)، و"زينب" وأمها، و"هدى" صديقة صديقي أشرف، و"روجرز" ووقف إطلاق النار، وأشياء كثيرة طفرت فجأة إلى سطح ذهني، حتى تخيلت نفسي أكاد أغرق في مياه الترعة المتدفقة .. لم يبق إلا قدم - قدر قدم - وأنزلق فيها، ولكنني كنت مستسلمًا، لم أكن هكذا أبدًا قبل العام السابع والستين، تنبهت على يد "أشرف" تجذبني، ويخاطبني:

- أتريد أن تنتحر يا حامد؟ ماذا جرى؟ فيم تفكر؟

وضحك ضحكة عالية، أيقنت أنها من القلب لأول مرة .. واصل بعدها:

- من ينقذني من "هدى" إذا ذهبت؟ بل من ينقذني من العسكرية وجحيمها الذي لا يطاق؟

- في العسكرية، لا أذكر سوى هذه المنطقة، أحبها يا أشرف، أقدسها، أنسى نفسي تمامًا، تعيدني إلى حضن الزمن المفقود، أنتقل من دنيا الهزيمة إلى السموات العلى.

كنت أتحدث بتدفق، دون أن أدري ما أقول، ولكن "أشرف" ضحك فيما يشبه السخرية:

- هذا كلام لم أسمعه من قبل، وإن كنت أشك أنك تقوله في الزراعية والأرض الخضراء التي نجول فيها، ولا يعكر صفونا أحد .. أتكون الآنسة ..

- وتلعثم، انتابه خجل، ولكنه تشجع:

- أتكون الآنسة "زينب"؟

ثم أطبق الصمت .. لم أستطع أن أجيب عليه، أو أتحدث عن أي شيء، لم أتوقع أبدا أن يصل تفكير أشرف إلى هذا الأمر، ولكن بعد لحظات أدركت أنه خبير في مثل تلك المسائل، ولا تعوزه الفطانة وقوة الملاحظة، وقد شكت إليَّ أمه تورطه في كثير من المشكلات نتيجة لخبرته هذه، حقيقة لم أستطع أن أرد عليه أو أتخلص من الموقف، بل استسلمت للصمت؛ مما شجعه أن يكون رأيًا معينًا، ويستجمع شجاعته من جديد؛ ليتحدث من جديد أيضًا، وتعبيرات وجهه تنم عن فرح مفاجئ يعبر عن مكنونه .. ولم يكن مكنونه هذا سوى وجود ذريعة يبرر بها مواقفه العاطفية .. أي أنه يقول: لست وحدي في هذا الميدان، فكلنا في الهم - شرق أو غرب - سيان، المحنة واحدة، لقد طال صمتي، وانتهزها فرصة:



- أهنئك يا أستاذ حامد.

كان يتكلم بفرحة النصر، وسخرية الحكيم، وثقة العاقل، ولكن أنى له النصر أو الحكمة أو العقل؟! .. استطعت أن أستجمع بعض فلول الكلام لأرد على المشاكس الذي وجد فرصته:

- علام تهنئني باشمهندس؟
- على "ليلاك" الرائعة.
- أي ليلى .. (كأني أتغابى)؟
- زينب .. ومن تكون غير زينب، حظك من السماء .. إنها رائعة .. رائعة .. تقبل تهنئتي مرة ومرة ومرة .. حتى تصبح .. قاطعته:
- ما هذا التهريج؟ (متصنعًا الغضب .. لا .. الجد والصرامة).
- لا تزعل يا سيدي .. لست مهرجًا، ولست أدري لماذا تخجل؟

هل نكتم عواطفنا حتى نموت؟ إنك بخيل في الإعلان عن عواطفك .. صدقني إن هذا يضرك ويؤذيك ويسبب لك أوجاعًا لن تقل عما فعلته "هدى" بي، بل أكثر.

الحق وجدت في كلامه بعض الحكمة المفقودة في عالمي، وشيئًا من الاتزان المفقود في عالمه .. ورحت أفكر، ولكنه انتزعني ثانية:

- لماذا لا تتزوجها؟

نظرت إليه .. حدقت فيه ..

- أنت تخيفني يا حامد بهذا النظرات، تكاد تقتلني، ماذا تظنني؟ أقسم لك أني لا أمزح.

لم أرد، وكان موقفي - فيما اعتقدت - شائنًا تجاهه .. فقد تركته يفكر لي ويتكلم، دون أن أبدي اهتمامًا جادًّا، رغم أني سهرت الليالي أفكر في أمر "زينب" وأم "زينب" ووالد "زينب" وجد "زينب" .. لقد استولت عليَّ .. حتى في ليالي الخدمة: كنت أرتفق سلاحي، وأرحل إلى كفر المحاريم، وأحوم حول دارهم، وأصعد إلى غرفتها:

- سلامات يا حامد.
- الله يسلمك يا زينب.
- وحشتنا ..
- وأنتم أكثر.
- أخذتك العسكرية منا.
- لا أستطيع أن أنساكم.
- متى تخرج منها؟
- الله أعلم.
- هذا صحيح، ولكن ألا تبدو أي علامة تعرفون بها متى تخرجون؟
- لا علامات إطلاقًا.
- كان الله في عونكم .. طالت المدة واشتقنا لكم.



مناجاة رسمية .. حديث ميري .. لا أثر فيه للعاطفة .. ولكن لغة العيون تفضح كل شيء، العيون تقول كل شيء في صمت وقور .. تكاد تنطق بشيء ولكن يمنعها شيء .. اللهفة تتحدث وتقول، وإن كان اللسان لا يقول، الناس أيضًا يقولون .. أشاعوا وتكلموا ..

ولكن لغة العيون تفضح كل شيء ..
العيون تقول كل شيء في صمت وقور



وأصبحت قصة "قيس وليلى" على كل لسان .. "حامد وزينب" بدلًا منهما، والقرية ترقب ما يحدث ويجري بتحفز، وربما بغبطة، ولكن تقاليدهم تحتج .. ونحن ما تجاوزنا اللقاء المشروع .. ورغم كل شيء فنحن نتهم – قريتنا تتهم – ما يدور في الأعماق ..

أصحو فأجدني مرتفقًا بندقيتي، والليل حولي، وعيون يهود تومض خاطفة في عمق الضفة الأخرى، والصمت سيد الموقف .. زينب بعيدة، والضفة أسيرة، والمندلاوي يعذب دار الشيمي، وأنا .. أنا .. ؟ أنا الغريب .. الأسير .. العسكري .. المقاتل، المتشوق للحركة، ولكن لوحة الموقف السياسي تقول: ممنوع. والمتكلمون شبعوا فلسفة، ولكنهم لا يكفون، ويستطيعون الانتقال ببراعة من موضوع إلى موضوع، وكلهم متفقون: سبحان من حكمنا وأعطانا الجاه والشهرة ولو كان ..

يفجؤني أشرف:

– لم أكن أعرف أنك غارق في الحب حتى أذنيك، مصادفة أحببت هدى .. فهل أحببت زينب مصادفة؟

ما رددت على أشرف، ولكن الغروب كان قد أوشك، فقلت له:

– هيا بنا للعودة.

فنظر آسفًا، ولوى رقبته للخلف، ثم تبعني، ومضينا.

***

(21)

سعد "أشرف" بالإجازة كما لم يسعد من قبل .. زار أهل "أمه"، وفرحوا به كثيرًا، وتعرف على دار الشيمي، فأحبهم وأحبوه، ودار في "الكفر" كله، وعرف أكثر من واحد، وأصبح له أصدقاء كثيرون، وانتعش انتعاشة ملحوظة، دفعت به إلى الأمام – على المستوى النفسي – دفعًا عظيمًا، فنسي همومه مع "هدى"، وبقايا همومه مع أمه .. وراح يفكر بشيء من الحكمة والاتزان .. ولكنه ما تخلى عن طبعه وطبيعته الميالة للقنص .. بيد أنه ما استطاع أن يشبع هوايته .. أين يذهب والعيون رواصد؟ و"الكفر" كله يخرج عن بكرة أبيه ليتابع خطوات أي ضيف أو غريب؟ لقد تعقل، وأصابته نوبة من الهدوء، لم أتفاءل بها كثيرًا، وإن كان هو يعتقد أنه أصبح آدميًّا آخر ..

كلما تلاقت عيوننا، أحسست، تذكرت أنه يريد أن يحدثني عن "زينب" و"زينب" فقط، ولا شيء سواها، نسي الشعر والحرب وأمه، و"هدى" .. أعترف أنه لم يكلمني عن تجربته مع هدى بالتفصيل .. لم يقل لي: كيف كانت تتعامل معه أو يتعامل معها .. واعتبرت معلوماتي غير كاملة، هناك سر في علاقتهما لم أعرفه بعد، وكنت أفكر أن أفتح معه الكلام لأعرفه، ولكنه حاصرني، ونسي كل شيء.

وبعد أن احتل كل منا مكانه في الخندق، أحس بقيمة الإجازة، قال لي أشرف:

- كنت أتمنى أن تمتد عامًا بأكمله (يقصد الإجازة) .. لم أشعر بالزمن هناك أبدًا، ولكني هنا أشعر بالثواني أعوامًا، بل قرونًا، تمر ثقيلة على قلبي كالجبال الراسخة، لا تريد أن تنخلع من مكانها، آه يا كفر المحاريم .. لقد أحببت أبناء أخوالي وخالاتي، كانوا يصرون على تحميلي زيارة كبيرة آخذها معي إلى أمي، ولكني قلت لهم إنني مسافر إلى الجبهة مباشرة، ولم يقتنعوا إلا بعد جهد كبير .. عتبوا عليَّ، لماذا لم تأتنا؟ وهل نسيتنا العمة "حياة"؟ كان عتابهم مريرًا، ولكنه عتاب الأحباب، يا حامد، ما عرفت أن الفلاحين يملكون مثل هذه العاطفة الودودة، لقد تصورتهم شيئًا آخر، لا تؤاخذني يا حامد؛ فأنا أتكلم بصراحة، ما تعودت أن أخبئ شيئا في داخلي، ولو كان قبيحًا .. هكذا خلقت، وهذا ما يثير الخلاف بيني وبين أمي كثيرًا، لقد تصورتهم - ولا تؤاخذني مرة ثانية - لا يفهمون شيئًا أبدًا.

- وماذا رأيت؟

- رأيتهم يعرفون كل شيء .. ومتحمسين للحرب فورًا .. أحدهم قالي لي: لقد رفعتم شأن اليهود حتى صاروا كالغيلان التي نخوف بها العيال، ولكنهم ليسوا كما يتصورون، إني حاربت في 48 وكانت أسلحتنا فاسدة، ولكننا ما خفنا وما تراجعنا، لقد تقدمنا كثيرًا، ولكن منهم لله من كانوا السبب في الخراب والمسخرة، ثم سألني: لماذا لا تحاربون؟ ماذا تنتظرون؟ حاربوا، أشغلوهم وأنزلوا بهم الخسائر فهم لا يتحملون.

قلت لأشرف:

- الحق يا أشرف أن الأمور أصبحت غامضة وغائمة، كل الأشياء أصبحت غير مفهومة، والأولى أن لا نفكر في شيء أبدًا.

- ويرضيك هذا الوضع.

- من قال؟ لا أحد يرضى أبدًا، لقد نسيت كل معلوماتي .. تصورني أخرج الآن إلى الحياة المدنية: هل أستطيع أن أقول لتلاميذي ما يجعلهم يثقون بي بوصفي مدرسًا؟ سأكون فاشلا بالقطع.

- وأنا نسيت جميع ما درسته منذ الأسبوع الأول في العسكرية!.

- ومع ذلك يجب أن نبقى حتى تدمدم بالرعد .. و .. أقصد أن نظل تحت الرداء الأصفر حتى نحول ضفة الصمت إلى نار متأججة، تعيد شرفنا الضائع، وكرامتنا التي سقطت في الوحل منذ العام السابع والستين .. لا منذ العام الثامن والأربعين.

ابتسم "أشرف" على غير توقع، وقال:

ونعيد "زينب" و"هدى" إلى حظيرة الرجلين التائهين .. أعني الأستاذ حامد الشيمي والمهندس أشرف الصعيدي، فتزغرد أم حامد، وتكشر خالتك "حياة"، وبالرفاء والبنين.

وأسفت لمقاطعته، وحديثه السخيف؛ لأنه يلمس وترًا حساسًا في قلبي، فكلمته بنبرة حادة:

- كل همك أن تمتلك "هدى"، ويذهب العالم إلى الجميع.

- وأنت تريد "زينب" وتنقلب الدنيا رأسًا على عقب.

- من قال لك؟

وتوتر المكان، وأحسست نارًا تندلع في جسدي دون وقود، فسخطت على الدنيا ومن فيها .. لقد أقحمني أشرف دون أن أستطيع ردا أو دفاعا .. ليس الآن فقط، بل منذ رآها في كفر المحاريم لم تخمد جذوة فكره، ورؤاه .. راح يفكر ويخطط ويرسم عن اقتناع كامل، بأنني الطرف الثاني، أو النصف الآخر المكمل لهذا النصف الهادئ الصامت الخجول .. أعني زينب ..

أدرك أشرف ما وصلنا إليه، وأحس بضراوة الموقف، فتحرك من فوره نحوي، وهوى على رأسي تقبيلًا، في حركة مسرحية، معلنًا أسفه لما جرى، ويعد بألا يتكرر.

هدأت قليلًا .. خف التوتر، وانتشى المكان بسكينة ملحوظة، ولكنني ما أحسست بالنشوة .. لقد زاد لهيب الوجد، ورأيتني أرحل ثانية إلى كفر المحاريم؛ لأشاهد الوجه الجميل للنصف الحلو - كما ظن أشرف - وأرى هناك السكينة الحقيقية، والنشوة الطيبة.

على باب الحارة - وبالقرب من دار الشيمي - يقف الشبان يحومون ويهومون؛ ليروا "زينب" .. الكل يريد نظرة .. إنهم يصطرعون، والوقت والعمر معهم .. خلت القرية من أمثالي، ولم يبق سوى هؤلاء الخارجين من البيضة، الفرحين بشبابهم الأخضر، لم يعرفوا أن الفارس الحقيقي غائب عن الميدان، وحاضر في الميدان، ميدانهم خال تمامًا، أما ميداننا الأصفر فمكتظ حتى آخره .. ولكن الكبار في قريتنا يعرفون أن حامد الشيمي، هو النصف المفقود لزينب .. نعم النصف المفقود؛ لأنه مرشح للذهاب في

بطن الصحراء، وكم تمنيت أن تأتي اللحظة التي أذهب فيها هناك حيث الله والصحراء والصمت المهيب، ولكن يا ويلي، ما زلت حيًّا أرزق، وأثرثر مع أشرف، الذي لا يتورع عن فضيحتي أمام الدنيا كلها، ومن يدري فقد يحدث العسكر بذلك بعد قليل أو غدًا .. النصف المفقود أنا .. لقد صدقوا، فالمحنة طال مداها ولا يعلم أحد متى تنتهي، والكل يرقب الصمت السائد على الجبهة في أسى، لم أملك نفسي حين رأيت الدنيا تعطي قومًا وتأخذ من آخرين .. لم أتحكم في وجداني، انطلقت أبكي راحلًا من كفر المحاريم لأجد أشرف أمامي.

- وتبكي يا حامد .. ماذا جرى لك؟

كانت قطيرات الدمع ترقرق في عيني .. صدقوني، ما كنت أبكي قبل إلا نادرًا .. وكنت أعيب على أشرف بكاءه السريع والقريب .. لكن سامحوني يا أحباب؛ فأنا آدمي، تمر بي كثير من لحظات الضعف وأتجلد .. أما الآن فلم أستطع.

نظر أشرف إلى وجهي وقال لي:

- اسمع يا حامد، لقد قرأت منذ حين قصيدة لشاعر حزين، أعاد فيها قصة أيوب بلغة العصر، وأحسبه يبكينا بأسى حميم، سوف أسمعك بعضًا منها، وينبغي أن تعرف أنه لم يكن مثلك أبدًا، كان رجلًا في مأساته .. وأنت تفهم معنى "رجل"، يقول الشاعر أو أيوب المعاصر:

لك الحمد مهما استطال البلاء ومهما استبد الألم

لك الحمد أن الرزايا غطاء وأن المصيبات بعض الكرم

فهل تشكر الأرض قطر الغمام وتغضب إن لم يجدها المطر؟

***

شهور طوال وهذه الجراح تمزق جنبي مثل المدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

ولكن أيوب إن صاح صاح لك الحمد أن الرزايا ندى

وسكت أشرف الصعيدي وجفت المآقي، وصرت أردد في سري (أن الرزايا ندى .. أن الرزايا ندى) .. لم تكن ندى .. كانت كوارث وخرابًا وضياع الأرض، وربما الحبيبة، وموت بالصمت لا يرحم، وانصرف أشرف إلى أوراقه؛ ليكتب رسالة إلى أمه، ولم أستطع أن أفعل مثله، وإن كنت قد تذكرت أمي ومنصور والمندلاوي وعرام وخالتي حياة، وازداد كرهي لـ "هدى"، وأحسست بخوف شديد على زينب لم يسبق له مثيل.

***

(22)

مضت الأسابيع الماضية، كل يوم فيها مثل الآخر .. لا جديد، لا تغيير .. لا بارقة تومض في السماء .. كرهت الكتابة والقراءة .. سئمت أصدقائي .. نفرت من أشرف الصعيدي .. استسخفت كل الكلمات .. حنقت على الغطرسة التي يبديها بعض القادة .. دماؤهم ثقيلة على قلبي، وألفاظهم الفظة تجعلني أشعر بزيادتهم عن الحاجة، بينما بعضهم الآخر ينفخ في قربة مقطوعة، يأخذون المسائل بجد وحزم، معهم أشعر ببعض الحيوية، وليس الحياة، تراهم مرشحين للشهادة دائمًا، أتقياء دائما، صائمين دائمًا، تنبعث الطيبة من قلوبهم رغم عربدة الحماقة، وأشعر أنهم يؤذنون في مالطة .. عيني عليكم يا قطعة من كبدي .. كبد الفلاحين الفقراء .. يا ويل الفقراء!! .. عاشوا وماتوا، ويعيشون ويموتون، دون أن يستقبلهم أو يودعهم أحد .. يا ويل الفقراء!! .. أعطوا ولم يأخذوا .. حملوا المخلاة على الظهر ثم وزعوا ما فيها على غيرهم .. يا ويل الفقراء!! .. كرهت الأشياء، عفت الصمت، رأيت السلاح قطعًا صماء أصابها الخرس الأبدي .. والتدريب الذي طال مداه، أصبح أكذوبة .. ألف مرة اعبر، تقدم، اعبر، تقدم، اقتحم .. مجرد تدريب، نقطة دم توفرها نقطة عرق، أقسم بالله العظيم أن أكون ... شعارنا النصر أو الشهادة .. لا أحد يستطيع أن يقنعني بشيء – أي شيء .. الصمت والخرس والسكون: حقيقة مطلقة، ما عداها

لا أصدقه، ربما صدقه غيري .. الصحراء في الضفة الأخرى خرساء وتنتظر الرعد .. متى تدمدم بالرعد؟

بالقلب أفديكم يا أحبابي .. بالقلب أحرسكم يا عيوني .. كلموني .. كلموني، فقد طال الصمت .. طال الهجر .. عز الصبر عز الصبر .. يا بعد الأحباب .. يا جرح الأحبة .. يا حبي الذي أتى مصادفة .. يا حبي الذي ذهب مصادفة .. متى تأتي مصادفة .. يا منصور .. يا أم حامد .. يا خالتي حياة .. يا سيدة الكفر .. يا حارسة الحقل، يا أم حامد ..

(الذي مضى من صفحات هو ما تركه حامد الشيمي في كراسة واحدة، لم يكملها، ثم رحل غريبًا، والصفحات التالية بعض مما وجد مبعثرا في مخلاته العسكرية وحقيبته ومكتبه عن الأشخاص الذين ذكرهم في ثنايا صفحاته، أو بعضهم - بمعنى أدق - وقد رواه بعض المتصلين بهم، وآمل أن أكون قد أوفيت: ولو بأقل القليل للراحل العزيز حامد الشيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأكرم مثواه ..)

حلمي

***

(23)

خرجت "كفر المحاريم" عن آخرها تستقبل عربة عسكرية صفراء بملابس سوداء، لم تكن معدة سلفًا، وإنما طبيعة القرية أن ترتدي سيداتها وبناتها ملابس الحداد أبدًا ..

وكانت "كفر المحاريم" مروعة كما لو تروع من قبل! .. لقد مات حامد الشيمي في الجهادية .. كيف مات؟ لا أحد يعرف بالضبط، التكهنات كثيرة، والحقائق قليلة .. لماذا مات حامد؟ سؤال أكثر صعوبة من سابقه .. هذا ما لا يعرفه أحد؛ لأن أحدًا لا يعرف لماذا يموت الناس.

كان حامد الشيمي طيبًا، وكانت كفر المحاريم تحبه حبًّا جمًّا، وتضعه في الحسبان حين تنظر في الأمور الجسام، ولكنه - يا عيني - ما انتظر .. كان سريعًا وخاطفًا كفرس الأحلام، وفأجأ القرية ومن فيها آتيًا لوداع دائم دون سابق اتفاق ..

اصطف العسكر .. كان بينهم أشرف الصعيدي، وأطلقوا فوق مقبرته طلقات لعلعت في الفضاء الساكن .. قبل الإطلاق نادى واحد منهم بصوت أجش:

نكسا سلاح!

وراح العسكر يقلبون أسلحتهم في نظام رتيب موحد، وبعد لعلعلة الرصاص نادى المنادي: نوبة رجوع .. فتقاطر الدمع كالمطر من كل

العيون .. أما أشرف الصعيدي فقد انكب على وجهه، ولم يدر ماذا جرى له أو لغيره، فالتقطه الناس ..

كانت المرأة الوحيدة التي تتكلم وتتجه نحو المقبرة هي "أم حامد" .. تعصب رأسها بمنديل أسود، وتحزم وسطها بحبل من التيل، وكانت تصفق بيديها:

سلامات يا حامد .. سلامات يا ولد .. يا سيد الرجال سلامات .. الناس تهدئها، ولكن أنى للمسكينة أن تهدأ .. عيناها مفتوحتان جافتان، تتسعان باستمرار .. تحمران .. تزدادان حمرة .. تسقط أهدابهما .. تحفران حفرة عميقة في وجهها .. ابيض كل شعرها .. غاض الدم في جبينها وجلدها .. سقط الجلد على العظم، وهي ما فتئت تنادي:

سلامات يا ولد .. يا سيد الرجال سلامات.



كان جو القهر يخيم على القرية .. لم يترك أحدًا دون أن يتسلل إلى رئتيه، فيصيبه بسعال الحزن العظيم .. حتى زينب شاهدها الناس تلتف بالسواد حول مقبرة حامد الشيمي، ولم يجرؤ أحد أن يتقدم منها .. وانصرفت بعد حين مع "أم حامد" تشيعهما النظرات الكسيرة.

أحس الناس في "كفر المحاريم" أن الهزيمة التي حلت بهم بعد موت حامد لا يمكن أن تكون هزيمة عادية .. بل شعروا أن ما حدث كان انقلابًا أطاح بكل آمالهم القديمة والجديدة .. كفوا عن الكلام والحديث، وكانت الوجوه مرآة صقيلة، تعكس كل ما يدور في الأعماق من الانكسار الحزين.

الرجل الذي لم ينطق أبدًا، ولم يتفوه بكلمة إطلاقًا، وأحرق ألف سيجارة، ولم يتحرك من فوق المصطبة بعد دفن حامد، كان الرجل الحزين "عم رضوان" .. اعتلى المصطبة، ونظر في الخلق، وأطلق العنان لخياله الحائر بين "عتليت"؛ حيث يقضي ولده محمود في سجونها مدة أسر لا يعرف أحد متى تنتهي، وبين حامد الذي كان يحبه حبًّا جمًّا، ويعتبره الابن الثاني بعد محمود .. كان حامد ومحمود رفيقين في مراحل التعليم والتوظف والجهادية، ولكنهما - يا عيني - قد افترقا؛ هذا ذهب أسيرًا، وذاك عاد جثمانًا ليوارى التراب، فلم يملك عم رضوان إلا الصمت.

حين أفاق أشرف، التفت حوله المعارف والأصدقاء والذين لا يعرفونه من قبل يسألونه عن موت حامد الشيمي، خاصة وأنه الصادق الوفي الذي يمكن الاعتماد عليه فيما يقول؛ بحكم صحبته لحامد وصداقته له، والناس

في كفر المحاريم لا يهجعون إلا إذا عرفوا الحقائق، حينئذ يسكنون أو يتطامنون .. أما في حالة جهلها فإنهم لا يكفون عن تناولها بشتى الصور الجادة والساخرة والماكرة حتى يصلوا إلى قرار ..

قال أشرف - بعد أن استعاد رباطة جأشه، وسكينة نفسه، وأفاق على الدنيا وقد تجمعت حوله تنظر وتتلهف على سماع ما يقول حول حامد الشيمي أو المرحوم حامد:

من الأفضل أن تتركوني .. فاستعادة ما حدث يجرحني ويمزقني، إني أرجوكم أن تترحموا عليه فقط، وتتركوه هانئًا في قبره؛ فقد شبع أشجانًا في الدنيا، فلا تلاحقوه بها في الآخرة.

ولكن الناس ألحوا عليه، واستحلفوه بحق الخالة حياة، كما كان حامد يقول، فروى لهم أشرف:

كان يود أن يذهب مع محمود راشد رفيقنا في الخندق - كان يسميه محمود الأمارة - إلى قريته ليشيعه، ولكنه ما ذهب، فقد أرغموه وأنا على نزول إجازة، وتركوا آخرين يذهبون معه، مع محمود الذي عبر معنا حيًّا، وعاد جسدًا نتعاون في حمله إلى الضفة الغربية .. كان يشعر بألم وندم؛ لأنه لم يذهب، وكثيرًا ما عاتبني لأنني لم أساعده في البقاء والسفر إلى قرية محمود الأمارة، ولكنه جاء بنفسه كما ترون وجئت معه لأودعه أنا، ومعي بقية الرفاق: إسماعيل وعبد الراضي وبكر وخالد والرقيب أول عبد الفتاح جمعة .. جئنا إلى قريتكم أنتم. . قرية حامد .. ولم نذهب إلى قرية محمود الأمارة .. آخرون ذهبوا .. آخرون حصلوا على شرف مرافقته، ونحن حصلنا على شرف مرافقة حامد..

وصمت يغالب اختلاج صدره، ولكنه جهش فجأة، فراح الناس يواسونه ويعزونه .. كان الفتى منصور الشيمي يستمع ويرى دون أن ينبس، ونطق على غير توقع أمام الجميع:

- لا تبك يا باشمهندس .. حامد أخي لم يمت .. سآخذ بثأره .. نظر إليه الناس، وقد شدهم الصوت الطامح للرجولة، المفعم بعبير التمرد والحلم الجميل .. وكان أشرف في قرارة نفسه معجبًا بما قاله منصور، ولكنه لم يستطع أن يتكلم معه .. بل ازداد تأثرًا وألـمًا .. وعاد الناس ينتظرون بإلحاح، كيف مات حامد؟ وكانت نظراتهم تحث أشرف على مواصلة الحديث:

- كان حامد صامتا لا يتكلم .. يتكلم عن الملل، ويتمنى الرعد، وكان يردد دائمًا سؤالًا لم نفهمه، أو يفهمه معظمنا: متى تدمدم بالرعد؟ .. كان دائم التحديق في الضفة الأخرى المقابلة، وحين يرى السواتر الترابية العالية كانت تهبط عليه الكآبة، ويشتعل داخله بالغيظ والثورة .. وازداد صمت حامد .. نادرًا ما كان يتكلم .. حتى معي، وليلة الموت، كان مبتهجًا على غير العادة، صلى، وحثني على الصلاة، ثم جلس يقرأ قرآنًا، ويقلب بعض الصحف والمجلات، كان يعلق على ما فيها باشمئزاز وقرف .. ملامحه كانت تنطق بما يرى في بطن الصفحات، ولكنه ما تكلم .. فقط كان يردد سؤاله الأزلي: متى تدمدم بالرعد؟ متى تدمدم بالرعد؟ ولكن فجأة ترك كل ما في يده .. "أعطني كوب ماء" .. هكذا قال لي .. تغير وجهه تماما، رأيته ينهار، أخذوه إلى المستشفى، ورأينا المحنة طافية على وجوه الأطباء على باب حجرة العمليات ..

كان الناس يستمعون في صمت بليغ، وكما يقول الكتاب منذ الأزل، كان على رءوسهم الطير.

بعد قليل واصل أشرف: فقدنا الأمل، ولكنهم ظلوا يعملون – أقصد الأطباء – حتى خرج أحدهم وكان يعرف حامد معرفة شخصية ليعلن النبأ الحزين وعيناه لا ترى من يتحدث إليهم.

تمتم المستمعون وهمهموا وتقبلوا ما رواه أشرف في استسلام يائس، ولم يعلقوا بشيء.

ظل أشرف في القرية ثلاثة أيام بإذن من قائده، كل يوم يأخذ زهرة يجلبها من حديقة بعيدة، ويضعها فوق قبر حامد .. وينفث هناك آلامه وأحزانه، ثم قفل راجعًا إلى الجبهة والخندق والضفة المقابلة ..

أم حامد، وعم رضوان، وزينب .. أطراف الحزن الأبدي في كفر المحاريم، كان كل منهم يعبر عن حزنه بطريقة مختلفة، إلا أنها جميعًا ترى في حامد نجمًا هوى ولن يرتفع أبدًا .. وظل الحزن على جبينهم مرسومًا ومكتوبًا ..

***



(24)

بعد أن هدأ ضجيج القهر في "كفر المحاريم"، وخفت حدة الحزن، استطاع أشرف أن يعود مع أمه إلى القرية؛ لتعزيه أم حامد، وفي أوراق حامد ومخلفاته، وجد بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين آخرين، وبعض الآراء والأفكار مدونة على هيئة مقالات قصيرة. وسوف نثبت هنا ما أمكن الاطلاع عليها، وينتسب بصلة إلى الشخصيات أو الأماكن أو الأحداث التي وردت في صفحاته الماضيات.

الرسالة الآتية عبارة عن صفحة من الورق الوردي، مكتوبة بخط رقيق منمنم، وفيها من العناية والاهتمام ما يدل على علاقة حميمة بين المتراسلين

"كفر المحاريم في 7/15

عزيز: حامد

أبعث إليك بالتحية والسلام في يوم بلغت حرارته حد الاحتراق، لعلها حرارة الشوق أيضا، ولعلك الآن تنعم على ضفة القناة بجو لطيف تقضيه في السباحة والصيد (تحت العبارة السابقة خط، من المؤكد أن الذي وضعه حامد) .. أمي تهديك السلام .. وجدي أيضًا، ولا تسألني عن أبي فأنت تعرف كل الأشياء، والسلام الخاص من أم حامد والإخوة، وعمك رضوان .. لا تطل غيابك .. نحن في انتظارك.

والسلام ختام

زينب".

أما هذه الرسالة فمكتوبة بخط يدل على سن كاتبها، وأسلوبه، وقد وجدت مطوية أكثر من طية حتى بدت متكسرة، وبها آثار ماء وحبر، وقد أصلحنا بعض كلماتها.

"بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ المحترم الأستاذ حامد الشيمي – دام –

أبعث إليك بالتحية والسلام، ونحن مشتاقون إليك كما يشتاق الزرع إلى الماء والعليل إلى الهواء .. ونحن بخير، وأمك بصحة جيدة، وتسأل عنك كثيرًا، وتدعو لك آناء الليل وأطراف النهار.

أعرفك أن "محمود المندلاوي" جعل الدورة في أرضنا لزراعة الأرز .. إنه لم يقدر على أحد غيرنا، ونفذ إبراهيم عرام رأيه، وأبعد زراعة الأرز عن أرضه؛ حتى لا يشقوا فيها مصرفا .. والمندلاوي اتفق مع المشرف على هذا، وختم مجلس إدارة الجمعية على هذا الكلام، وأعرفك أن إخواتي زعلوا وراحوا إلى المشرف، ولكنه قال لهم إن القرار صدر وانتهى .. وأمك قالت معلهش .. اتركوا الأرض بورًا ولا تزعلوا . وربنا معاكم يا أولادي.

وأعرفك أن عم رضوان زعلان أيضًا، وحلف ألا يكلم المندلاوي طول عمره، ولا يبص ناحيته، ولا يبيع له ولا يشتري منه.

كما أعرفك أن "المولد" في الأسبوع القادم، وسيأتي الشيخ صالح وفرقته و"سيارات" المركز كلها.

أمك تبعث إليك بألف مليون سلام، والجميع يسلمون عليك .. والسلام عليك ورحمة الله

أخوك المخلص: منصور الشيمي 1/3

بمدرسة شربين الإعدادية.

***

في أجندة المذكرات قرأنا الصفحة التالية، وكانت مدونة بخط يدل على عدم الاهتمام؛ حيث تبدو بعض الفقرات على هيئة دقيقة، وبعضها الآخر يدل على السرعة وعدم الاعتناء، وها هي كلماته:

استقلال البقرة مرهون باستقلال باكستان .. "محمد علي جناح".

***

جلوا صارما وتلوا باطلا   وقالوا صدقنا فقلنا نعم

"أبو العلاء المعري"

***

شكرا للذين يتخلون عني، إنهم يعيدونني إلى نفسي

"هنري دي مونترلان"

***

وكم ذا بمصر من المضحكات   ولكنه ضحك كالبكا

***

ولم أر ظلما مثل ظلم يصيبنا يجار علينا ثم نؤمر بالشكر

***

يا طالبا للموت قم واغتنم هذا أوان الموت ما فاتا

قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتا

"شاعر مصري حين عم الطاعون"

***

الاثنين 17 من يوليو 1971 - 6 من جمادى الآخرة 1392 - 10 من أبيب سنة 1688.

خروج المستشارين العسكريين السوفييت، وبداية استقلال مصر الحديثة "العاقبة لليهود .. آمين".

***

12500 جنيه جوائز التمثيل في السينما، عدا التصوير والقصة والنقد والسيناريو والموسيقى التصويرية والديكور والملابس - لم يتقدم إليها أحد - مبروك أيتها السينما الأونطة.

***

غير اللواء الحر لا نترسم وبغير صك جراحنا لا نقسم

ولغير قدس الشعب لسنا ننحني وبغير وحي الشعب لا نتكلم

فلتشرب الريات نخب جراحنا كأسا يفيض على جوانبها الدم



قسما بأعراس الجراح وفجرها غير اللواء الحر .. لا نترسم

"سميح القاسم"

***

"هاتوا لي من الحبيب كلمة"

***

قال عم عنترة العبسي قديمًا:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمم

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين - إذا لم ألقهما - دمي

ولكن واحدًا من شعرائنا - فرج الله كربته - قال على لسان عمنا عنترة وهو يخاطب زرقاء اليمامة - هكذا تصور شاعر عصرنا الموقر "أيتها النبية المقدسة" .. يقصد زرقاء:

لا تسكتي فقد سكت سنة فسنة .. لكي أنال فضلة الأمان

قيل لي: اخرس فخرست وعميت وائتممت بالخصيان - أي والله.

ظللت في عبيد عبس أحرس القطعان

أجتز صوفها .. أرد نوقها .. أنام في حظائر النسيان - عظيم جدا.

طعامي الكسرة والماء وبعض الثمرات اليابسة - نسيت المدمس؟

وها أنا في ساعة الطعان

ساعة أن تخاذل الكماة والرماة والفرسان - تركوا 800 دبابة سليمة في سيناء ..

دعيت للميدان ..

أنا الذي ما ذقت لحم الضأن ..

أنا الذي لا حول لي ولا شأن ..

أنا الذي أقصيت عن مجالس الفتيان ..

أدعى إلى الموت .. ولم أدع للمجالسة".

عظيم والله كلام شاعرنا الهمام، ما رأيك يا عم عنترة، وهل ترضى بك عبلة مع هذا الحرمان حتى من الفول المدمس؟!

❊❊❊

إني أرى شجرًا يمشي - إني أرى جبالًا تطير .. إني أرى كفر المحاريم تنتخب المندلاوي وتحب عم رضوان، وتريد أن تخطف "زينب" .. مدد يا أم هاشم .. تصبحون على خير يا عساكر .. يا عناتر ..

❊❊❊

وفي صفحة أخرى بدا اهتمامه بالخط والتنسيق واضحًا قرأنا ما يلي:

أظل أسقيك من غنائي ... سلافة الروح والقلوب

وذاك أني أراك ترنو ... لبهجة الشمس في الغروب

وتعشق الطير حين يشدو ... على ذرى فرعه الرطيب

وأنني من هيام قلبي وشدة الوجد واللهيب

أغار من نسمة الجنوب على محياك يا حبيبي

صوت أم كلثوم .. ينساب هذا السحر بهذي الكلمات فأزداد شوقًا إلى "كفر المحاريم"، وأناجي حارة الشيمي، ودارها بتلك الحارة.

***

أوس بن حجر كان مصيبا حين قال:

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

عند هذه الفكرة بل عند الشطر الثاني من البيت السابق، لم تتمالك الخالة حياة نفسها .. أجهشت باكية كما لم تبك من قبل، وصارت تردد أن الذي تحذرين قد وقعا .. قد وقعا .. عيني عليك يا حامد .. قلبي كان يشعر .. كان يحس أن شيئًا ما سيحدث، ولكني لم أتبينه .. لم أفهمه .. اكتفيت بالصبر والمنى والانتظار .. وقد حدث ما حدث .. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

***

على وجه ورقة بيضاء، وجدنا رسالة محررة منذ زمن - سنة تقريبًا - وموجهة إلى زينب، ولكنها للأسف لم تكتمل، وقد آثرنا حذفها؛ لأنها لا تعدو أن تكون تعبيرًا عن الشوق والأحلام، ثم بعض السلامات، وبداية لحديث عن والد زينب لم يكتمل، ولم تكتمل الرسالة أبدًا.

بقيت الخالة "حياة مرعي" في كفر المحايم لمدة شهر تقريبًا، وتركها أشرف بعد يومين عائدا إلى وحدته العسكرية، وكانت تقضي معظم أيام وجودها في القرية لدى أم حامد؛ تواسيها وتعزيها، وتذكر لها كثيرا من

القصص الدينية والحكايات الواقعية التي تزرع في نفس السيدة الحزين أم حامد يقين الصابرين وصبر المؤمنين.

في خلال إقامتها بالقرية، زارت كثيرًا من العائلات: أقارب وجيرانا وأصدقاء العمر القديم، واستردت هناك - رغم الفاجعة - بعض ما كانت تطمح إليه من هدوء وسكينة، وعزم جديد، إلا أن حزنها على حامد لم يكن عاديًّا .. لقد شعر الناس عندئذ أنها ترثي ابنًا حقيقيًّا، والحق أن أعماقها كانت ساخطة على أشرف الذي لم تر فيه ما رأته في حامد، وفقدته بعد رحيله المفاجئ والغريب.

كان الناس آنئذ مشغولين بأشياء كثيرة ومتعددة .. "اللا سلم واللا حرب" .. اصطلاح أطلقه واحد من المتكلمين، واستولى على الناس تأثيره حتى كرهوا أنفسهم، وتمكن اليأس من نفوسهم .. انتفاضات في القمة .. حريق الشرائط في المخابرات العامة .. الناس يتحدثون عن الحرية وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين .. الحلم بالكلام والخوف من الكلام .. الناس يتنفسون بقدر، والصحفيون بدأوا يتكلمون بلغة غير متشابهة تمامًا، يمكن للمرأ أن يقرأ في صحيفة ما شيئًا يختلف عما في صحيفة أخرى .. بعضهم يتحدث عن الحرب بأمل، والبعض الآخر يؤكد استحالة الدخول إلى الصحراء ثانية ... و ...

أشياء كثيرة ومثيرة، ولكن الجبهة كانت صامتة، وكان أشرف ورفاقه يتقلبون على سفافيد الصمت واللا حرب، ويتناقشون عن اللا سلم والأعباء الثقيلة التي تتحملها الدولة، وسوء الخدمات، وقلة الإنتاج، وتعطل بعض المصانع، وانتظار الحرية الكاملة .. وكان خيال حامد الشيمي لا يبرح أذهانهم أبدًا.

(29)

كـان الـشعور العـام في مـصر رافـضًا للـصمت، وكـان سـاخرًا حـين لم يـستطيع الإبانـة عـن نفـسه .. فكثـرت النكـت كثـرة ملحوظـة، تحولـت إلى مظاهر متعددة من الحركة .. مظاهرات في الجامعة، مقالات في صحافتها الحائطية، مناقشات لا تكف ولا تنتهي، خاصة حين ازداد اليهود صلفًا، وقامت الدولتان العظميان بمساعدتهم مساعدة ملموسة وحاسمة؛ دولة بالرجـال والأخـرى بالعتـاد. ومـصر تنتظـر الفـرج الـذي لم يـأت، في صـبر أيوب، بل أكثر ..

استولى على الناس في "كفر المحاريم" جو من اليأس والكآبة .. لم تعد الضحكات من القلب ولم يعد هناك أحد يقول نكتة .. فقد شبعوا تنكيتًا، ولم يجدوا لها أثرًا إلا جروحًا في القلب غائرة. وكان موت حامد الشيمي وجنازته المهيبة، الحدث الكبير الذي ظل مسيطرًا على أفئدتهم في كل ما يفعلـون ويقولـون .. لقـد شـعر النـاس أن الهزيمـة أضـحت رهيبـة وعاتيـة ومعربدة .. وكانت تعليقاتهم لا تخرج عن الأسى والتحسر:

- لم يكن حامد إنسانًا عاديًّا.
- مات من التفكير.
- زينب هي السبب!

- والد زينب هو السبب بالمعنى الأدق، حسن الأزرق هو السبب، بشهادة التاريخ.

- إنه رجل أحمق، ولا يعرف عن زينب شيئًا، ولا يعلم من هو حامد الشيمي.

- رحمه الله "حامد" .. كان طيبًا ووديعًا.

- كان يحلم باليوم الذي يحج فيه مع أمه.

- كان يحبها .. ويحب زينب.

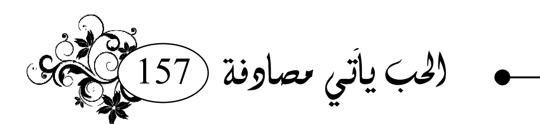
- أمه انكسرت .. انهد حيلها!!

- "الكفر" كله انكسر ..

- زينب توشك أن تموت هي الأخرى.

يوم مات حامد، لبست زينب السواد ولم تخلعه حتى الآن، وجهها المورد أصبح ذابلًا، ضامرًا جلدًا على عظم، ضاع تفاحه، انطفأ بريقه، غاض نهره، جف واديه، تساقطت أهدابه، شقت فيه الأخاديد قبل الأوان .. أم زينب ذبلت هي الأخرى لذبول ابنتها، راحت تنعي بختها الأسود، وحظها النكد، ومصيبتها في زوجها الذي لا يعرف بيته ولا زرعه ولا بهائمه.

أم حامد لم تكف عن الكلام، كانت تقوم بجولات مستمرة حول "الكفر"، تتحدث عن حامد الذي لم يمت، والذي وعدها بالحج وزوجة مثل البدر اسمها زينب، وأطفال صغار تناغيهم وتطعمهم المن والسلوى، وألوف من القبل يوم يعود من الجهادية فتيًّا وعفيًّا ورضيًّا .. كانت نسوة



الكفر يتحلقن حولها عند عتبة من العتبات ويواسينها، ويزرعن في قلبها العشم بالصبر والسلوان، والبركة في البقية من الإخوة والأخوات.

- إنه شهيد يا أم حامد.
- حامد أمارة.
- حامد حي عند الله ..
- لا تبكي عليه .. زغردي من أجله؛ فقد ذهب رجلًا ..
- سيد الرجال حامد.
- خذي بالك من "منصور".
- بارك الله في منصور .. شقيق حامد الأمارة.
- يا أم حامد، لا حزن على شهيد.
- حامد في الجنة..

تسمع الأم هذي الكلمات .. تصغي إليها مرهفة، تذوب في حروفها، ولكنها تبكي الولد الأمارة، الذي تأخر عليها قبل أن يموت، ولم يعد إلا ساكتًا، فلم يناغ أمه، ولم يضحك مع إخوته، ولم يأت بصديقه أشرف، ولم يوصل السلام إلى خالته حياة، ولم يقرأ الفاتحة عند آل البيت في السيدة زينب والحسين، وكانت تهتف من حشاشة القلب بعد أن تثوب إلى الوعي، والناس من حولها:

- آه يا ولدي ..

وتظل تـردد آه يـا ولـدي حتـى تغيـب ثانيـة، فيأخـذنها إلى دار الـشيمي متهالكة ذائبة، مهدودة الحيل، وتخلد إلى النوم، والصمت العميق والسكون العظيم ..

حاول الناس أن يخرجوا عم رضوان عن سكوته، فما قدروا .. أرادوا أن يعيدوه معهم إلى المصطبة متكلمًا ومتحدثًا وراويًا لما سمع في الإذاعة وما قرئ عليه من الصحف، ولكنهم ما أفلحوا .. صحيح أنه كان يجلس بينهم على المصطبة، ولكن دون أن ينبس، يتطوع أحدهم، فيقدم له سيجارة من علبتـه، فـيرفض بأصـبعه، وكـان بعـضهم يعـرف طبعـه، فيـأتي بالـدخان المفـروط، ويلـف لـه سـيجارة ويـشعلها، فيتقبلهـا الرجـل صـامتًا دون حديث .. ويظل يسمع ما يقولون دون أن يعلق .. كان حديثهم في معظمه يـدور حـول حامـد الـشيمي، ويعـرج على محمـود ابـن عـم رضـوان .. كـان البريق الخاطف يشع من عينيه حين يسمعهم يتكلمون عن محمود، ولكن نـار الـشوق في داخلـه كانـت تـشتعل مـضطرمة ومتأججة، هـل يقـدر لـه أن يعـود إلى أبيـه .. ذلـك الولـد الـذي فقـد حامـد الـشيمي أو افتقـده حامـد الشيمي، أو فقد كل منهما الآخر، أو فقدتهما كفر المحاريم؟، هل يقدر له أن يعود إلى الناس وأبيه وأمه وأم حامد وأبنائها، فيرون فيه رائحة الذي غاب ولم يعد؟

كانوا ينظرون إلى الرجل، وداخلهم يرثي له .. محنته مزدوجة، ما أصابه لم يصب أحدًا من قبل، يعرفـون مدى حبه لحامد .. إنه لا يقـل بحـال عـن حبه لمحمود .. كان يعتبرهما "توءمًا" ولد له في سنة واحدة؛ لذا فإن فراقهما له، وافتراقهما عن بعضهما في المحنة، جعل الرجل يكتم كل آلامه وأحزانه،

ولا يبين .. فقط يجلس ويسمع ويصغي، وينظر في فضاء كالتيه .. يقولون له وعنه دون أن يستجيب للحوار:

- رضوان معذور .. كان الله في عونه.
- فقد الولدين وأم محمود في عام.
- موت زوجته هدّ حيله.
- لكنه زود الأمور حبتين.
- إنه مقهور.
- يجب أن يثق في الله وفي المستقبل.
- قد يعود ابنه محمود ويعوضه عن موت حامد .. خاصة وأن محمود فلذة كبده وأول فرحته.
- إنه يركب رأسه، ويعتر من البوح بأسراره.
- يتكبر علينا، يا عيني ..
- ينبغي أن تعذروه.

تغص المصطبة، وينفض سامرها، ويبقى الرجل رضوان أو ينصرف، ويأوى إلى فراشة أو يصحو منه، دون كلمة .. هل أصابه خرس؟ لا .. ولكنه يصر على الصمت، مضربا عن الكلام .. شبهه بعضهم بسيدنا زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين صام ثلاثة أيام، ثم خرج على قومه؛ ليسبحوا بكرة وعشيًّا، ولكن العم رضوان صام طويلًا، ولم يفطر بعد ..

حين عاد أشرف الصعيدي في إجازة ليعرج على دار الشيمي؛ وفاء لصديقه الراحل، وزيارة لأهل أمه الذين تعلقوا به وأحبوه وأحبهم – مر على عم رضوان .. حياه وسلم عليه، ولم يجد الرجل بدًّا من الرد عليه والتحدث معه؛ لأن أشرف ضيف والتكشير في وجه الضيف عمل غير كريم وغير لائق ..

- أهلا يا عم رضوان.
- أهلا وسهلا يا ولدي.
- كيف الحال؟
- الحمد لله على أي حال.
- ما زلت حزينًا؟
- إنا لله وإنا إليه راجعون.
- ولكن إلى متى ستظل حزينا؟
- الأمر لله يا ولدي.
- كلامك يدل على فهمك لما حدث وكان .. ولهذا فإني أستغرب أن تظل هكذا يا عم رضوان .. سوف يعود إليك ولدك.

سخر عم رضوان من جملته الأخيرة، واهتز جسمه كله:

- متى .. متى؟

ثم أردف، وعيناه تتقدان:

- لقد ذهبوا جميعًا يا ولدي ولم يعودوا .. حامد ذهب .. أم محمود ذهبت .. ومن قبلهما ذهب ولدي .. محمود ذهب يا أشرف ..يقولون إنه ذهب أسيرًا، وأنا أقول إنهم يضحكون عليَّ .. كان حامد يقول لي: لقد أخذوه وسوف أعيده، كان يحلم - يا عيني - بأن يعيده بنفسه، ولكنه ذهب .. من يستطيع أن يقول لي إن اليهود لم يقتلوه؟ صحيح أنه أرسل لنا رسالة منذ زمان بعيد تحمل ختمًا دوليًّا، ولكن هل ظل حيًّا؟ .. دعني أتحدث عن حزني يا ولدي .. إن أحدًا لم يحدث له ما حدث لي .. لقد مت .. تمنيت أن يكون يومي قبل يومهم . ولكن ما العمل؟ أين المفر؟ ..

استغرق الرجل في الكلام الحزين .. انطلق لسانه، أفطر على حديثه مع "أشرف"، الذي راح يواسيه، ويتطلف به.

وظل أشرف عدة أيام في القرية، اعتبرها بمثابة هروب من "هدى" التي تطارده، مع أن أمه بدأت تقود ضدها حربًا شرسة؛ لتنقذ ولدها، وقد سعدت بزيارة ابنها للقرية زيارات مستمرة، واعتبرتها إحدى وسائل المقاومة والكفاح ضد هذه الهلوك اللعينة، وتكفلت هي ببقية الوسائل.

القرية غافية، والصمت المشحون يغطي سطوحها المتقامئة، وأشجارها الجرداء، ومستنقعاتها العطنة، ومئذنتها التي تشق الهواء في تواضع خجول.

والناس هنا بإحساسهم الخفي يدركون أن شيئًا ما سوف يقع .. يحدث .. ينفجر ..

وصح توقعهم، وكان الانفجار .. الحدث الواقعة !! ..

***

(26)

عند الظهر في الثانية إلا ربعًا بالضبط، كان جنود مصريون يعبرون قناة السويس تحت قصف شديد بالمدفعية الثقيلة، سبقته هجمة ضارية بمائتي طائرة مصرية على مواقع العدو الإسرائيلي، وكان من بين الجنود الذين يسبحون بقوارب المطاط فوق ماء القناة جماعة حامد الشيمي بقيادة الملازم عبد الرحمن .. كانت الجماعة تتحرك بالفرح الغامر الذي لم يستشعروه أبدًا منذ ليلة عبورهم وحدهم مع جماعات الوحدة بقيادة النقيب إسلام .. كانوا يشعرون بأنه لا ينقصهم سوى محمود الأمارة، وحامد الشيمي .. ولكنهم في قلب الدوي والهدير والدخان لا يذكرون شيئًا، إلا الرحيل نحو الله والصحراء والصمت المهيب ..

"الله أكبر" ..

"الله أكبر" ..

"الله أكبر" ..

وتدوي الصحراء باسم الله، ويتقدم الفلاحون المصريون بكل نوعياتهم نحو الله والصحراء والصمت المهيب، يستضيفهم الله، وترحب بهم الصحراء، ويكلمهم الصمت المهيب.

وكان دوي . وكان قتال .. وكانت دماء ..

اهتزت أركان العالم، وثب الخوف من مكمنه، غرق الخوف – الحيوان المستأنس في زمن الهزيمة – مع أكثر من حيوان وحشي في قلب القناة .. أحس الناس برد الراحة .. صوت الله يدوي في أرجاء المعمورة عبر قناة السويس.

في البداية كذب الناس كل الأنباء .. لم يصدقوا .. في المساء سمعوا وزير الحرب الإسرائيلي يتكلم عن حصونه المسماة "خط بارليف"، ويشبهها بقطعة من الجبن الهش .. وقائدًا آخر من يهود يتوعد العرب بدق عظامهم .. حدد اليهود لقتل العرب وقهرهم أربعًا وعشرين ساعة، امتدت إلى يومين، ثلاثة أيام أربعة .. لم يحدث شيء .. يتقدم المصريون .. يقاتلون ببسالة .. يطغى الفرح على كل الوجوه .. تفتر الثغور عن بسمات غابت طويلًا .. تضيء الجبهات المكتئبة .. يحلم كل الناس بالسفر إلى الميدان، يضحكون على الأسرى، يشاهدونهم في التلفاز .. يرون صورهم في الصحف .. يتناقلون كل الأخبار .. يسمعون كل الإذاعات .. عادت الثقة إلى الصدور .. انتهت أزمة الكذب .. حلت معضلة التصديق .. بيانات المصريين تبدأ باسم الله، وتتحدث عن الوقائع بصدق .. بطولة الحناجر انتهى أوانها .. عنتريات الهواء ذهب زمانها .. لم يبق إلا الفعل في الميدان .. في العاشر من رمضان 1393هـ ولدنا من جديد .. يحق لنا أن نقيد في سجل المواليد، لو كان حامد الشيمي حيًّا لمات من الفرحة كان متشوقًا إلى هذه اللحظة منذ زمان، ولعل هتافه في أيامه الأخيرة متى تدمدم بالرعد؟ قد تحقق الآن .. يا له من رعد .. ويا له من مخاض، لقد انطفأت عيون القهر، وبقي أن يقبر القهر إلى الأبد .. يا فرح الذين ماتوا في هذه

الساعة .. حامد الشيمي يستقبلهم بالبهجة والفرحة والسعادة، ما كان يتمنى في حياته غير هذه اللحظة، ولكنه - يا عيني - ذهب قبل الأوان، ولم ينتظر حتى ينحني فوق السواتر التي مالت تحت ضغط الماء المندفع من قلب القناة .. كان يتمنى أن ينحني كأشرف وإسماعيل وعبد الراضي وبكر وخالد والرقيب أول عبد الفتاح جمعة والملازم عبد الرحمن والنقيب إسلام، ومئات الألوف ممن يرتدون لبس العسكر .. كان يتمنى أن ينحني مثلهم حاملًا على ظهره متاعه وشدته وسلاحه، وفي وسطه حزام من القنابل، ويختفي رأسه كله تحت القناع الواقي، وكان يجيد التسلق على السواتر، والتسلل الفجائي إلى قلب الحصون اليهودية ... وكان ... وكان ..

في هذه الآونة كانت الدنيا مشدودة الأعناق إلى القناة، الكل يبص ناحية الصريخ والميلاد .. انتهت آلام الحمل الطويل، وجاء المخاض بالبشارة الفرحانة ..

ابتهج الناس في كفر المحاريم أيما ابتهاج .. كان هدير الفرح يطغى على كل ما عداه، وكل ما سبقه: موت حامد الشيمي، وذبول زينب وأم زينب، صمت رضوان الذي لم يتمزق إلا مع لقاء بأشرف الصعيدي، وما أصاب السيدة الوقور العظيمة أم حامد الشيمي ..

نسي الناس كل شيء، كما نسي الأولاد فوق حافة الصحراء، التي يتوغلون في عمقها كل المخاوف والأشجان .. وهنا - في كفر المحاريم - نسوا كل الآلام والأحزان أيضًا .. تغيرت الدنيا، وتبدل الناس .. اندملت



جراحهم المعبأة بالقيح والصديد والهوان .. عادت إليهم بهجة الميلاد، وفرحة التكوين، وشهقة الحياة .. عادوا بعد غياب .. السفر الطويل في دنيا الهزيمة والمسخرة آن له ينتهي .. أن يزول ..

هل تعرفون ما حدث "لزينب" .. برقت عيناها، ضخ قلبها دماء جديدة إلى جبينها الذي أشرق، أصبح ورديًّا، أصبح ربيعيًّا .. نضت عنه ملامح الغربة، وأعادت إليه شوق العطاء .. شوق القطاف.

فرحت "زينب" .. زحفت نحو المقبرة التي يثوى فيها الحبيب الغائب الحاضر، وفوق المقبرة وضعت نبتة صبار خضراء، وراحت تناجي الحبيب، الذي أتى مصادفة، وراح فجأة، وتعتذر إليه:

- لا تزعل يا حامد ..
- ....
- كنت مريضة .. حزينة .. كدت أموت ..
- ....
- وسمعت الناس تقول عني إني أموت!! لكن الله سلم، أصبحت الآن أكثر نضارة وإشراقًا، وأتمنى أن ألقاك قريبًا..
- ....
- لا تخف فأنت الحبيب الغالي، ولكنها الآجال بيد الله.
- ....
- لا أحد سواك ... لا أحد سواك ..

- ....

- كله بخير ... المهم أنت ..

- ....

- ودائما نتمنى أن تكون كذلك .. فرحان ريان ..

- ....

- سوف يعود محمود .. سوف سيعود، ولكنه سيحزن كثيرًا.

- ....

- لم يدر حتى الآن .. لم يقل له أحد؛ لأنهم في "عتليت" لا يسمحون لأحد بالاتصال مع الآخرين.

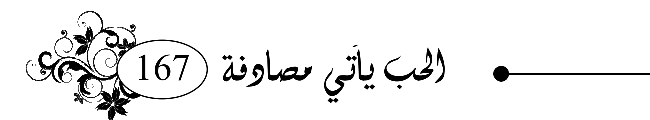
- ....

- أريدك فرحان ريان.

- ....

- أتيت بها لتخضر على جبينك، ورمزًا لحبي وحبك .. ستظل الصبارة خضراء، ولو لم تجد نقطة ماء.

تتراجع الفتاة مشرقة ريانة، تعود إلى أمها التي ابتهجت بفرحة ابنتها .. وإن كانت السحابة السوداء تظلل وجهها حين تذكر ذلك الرجل .. زوجها الذي ما زال يلوك "الفص" في فمه نهارًا، ويمص غابة الجوزة في المساء وعمق الليل .. ولكنها تتعزى بـ "زينب"، وجدها العجوز الجالس أمام جمله .. يلقمه طعامًا، أو يفتل له حبلًا، أو يصنع له غبيطًا.



"أم حامد" شدت حيلها .. استقامت .. عادت إليها الروح .. خرجت تدور حول "الكفر"، وتقول للناس:

- هنئوني .. هنئوني . باركوا لي .. باركوا لي .. اليوم فرح الولد حامد .. زفافه اليوم حامد .. ولدي حامد سأزفه الليلة .. هنئوني .. باركوا لي ..

كلماتها تثير الأسى، ولكنها فرحانة .. تغيرت .. فتّحت .. استقامت قائمة .. كانت تحس ما يجري وإن كانت لا تعي .. تتحرك وتمشي وتلف الكفر كله، ثم تعود وحدها دون أن يصحبها أحد .. ما عادت بحاجة إلى أحد .. كلامها قليل، ولكنه مستقيم .. طيبة هذه المرأة، كان الله في عونها، وعون رضوان .. عم رضوان.

لم ينم ليلة الحرب ولا بعدها، أحس نارًا تنطلق من صدره فجأة، ويستريح بعد خروجها .. كان ما فعله: امتطى حماره الأسود، وذهب إلى البندر بين سخرية بعض الشباب وإشفاق الشيوخ، ولكنه ذهب إلى المأمور ليقول له:

- خذني أقاتل .. علموني أقاتل .. دعوني أذهب لأرجع بولدي، خذوني بحماري ..

- ضحك المأمور، وطيب خاطره، وقضى معه وقتا كان في حاجة إليه، ولكنه أقنعه بالرجوع إلى الكفر، فرجع آسفًا .. ثم نسي أسفه حين رأى جانبًا من الكفر - عزبة ملاصقه - تشتعل أثر قذيفة من طائرات العدو .. هب في الناس يدعوهم لإخماد الحريق، ويسهم معهم بما يقدر عليه وما

يملكه .. ورجع - رغم كل شيء - مسرورًا؛ لأنه آن الأوان ليتوضأ كل الناس ويتطهروا ويقيموا الصلاة - كما يقول، وراح يهتف في فرح:

- محمود سيأتي .. سيأتي .. سيعود.

***

كما الترمومتر ودرجة الحرارة، كان الناس في كفر المحاريم، والعساكر على جبهة القتال، ولكن الشيء الذي استقر هو الفرح العظيم الذي لم يحدث منذ ثلاثين عامًا فوق الصحراء، بعد أن هزم أهل مصر يهود.

***

(27)

في إجازة ميدان خاطفة، قال أشرف الصعيدي لأمه حياة مرعي:

- لقد بعث حامد الشيمي حيًّا، رأيته يقاتل معي بضراوة، هل تصدقين؟

أدركت الأم مدى العناء الذي شهده أشرف خلال القتال، ولكنها تيقنت أن ولدها قد تغير، وأنه نسي كل العقد التي ضيعته في العهد الماضي .. باركت هذا التغير في نفسها، وشجعته على الكلام:

- لأول مرة لا أشعر بخوف .. كل همي أن أمضي وألحق بالزملاء الذين سبقوا، وكانت أمنيتي أن ألحق بالذين قضوا، ولكنني عدت إليك يا أم أشرف كما ترين.

كان يريد أن يتكلم؛ ليلبي تشجيع أمه، ولكنه ما كان قادرًا على الاستطراد، فأخذت تسأله عن أصحابه والأرض، والأسلحة، والطعام، واليهود، والحصون، والطائرات، والمدافع، والدبابات، وكان يجيبها أحيانًا باستفاضة، وأحيانًا أخرى باقتضاب، وحين قام من جلسته أخذت تتأمله، فإذا بها تجده يظلع في مشيته .. تأكدت مما ترى، ندت عنها آهة .. آه يا ابني .. حبست صرخة في فمها .. لم يحك أشرف لأمه ما جرى له .. في ساقه إصابة، ولكنه مصر على العودة إلى الميدان، ما عاد يهوى حياة المدينة .. لقد عشق الصحراء في ظلال الله والصمت المهيب .. كاد ينسى

"هدى" تمامًا، لولا الخوف الذي يجعله يتذكرها؛ ليتحاماها، ولما عرفت ما حدث، حاولت أن تقنعه بالبقاء، ولكنه أقنعها بالعودة حين قال لها:

- هناك سيدخلونني مستشفى، وسوف يقدمون لي خدمات أفضل .. فرت من عينيها دمعتان .. وودعته بعد ساعات إلى الميدان.

في صحف الصباح التي أعقبت توقف القتال، نشر في صفحاتها الداخلية نبأ وفاة الأستاذ عامر المنوفي أثر نوبة قلبية ألمت به، ولما طالع أشرف الخبر شعر بالحزن أكثر من ذي قبل على حامد الشيمي، وقال في نفسه:

- لقد تسبب هذا الرجل - يقصد عامر المنوفي - في ليلة سوداء مرت بحامد، ويبدو أن الزمان قد رد إليه الجميل، فقد ظهر عكس ما ذهب إليه، وأثبتت الأيام أن الغرباء طامعون وانتهازيون .. كان يرى أن مصر لابد أن تحارب تحت مظلة سوفياتية، وإلا هزمت، ولكنهاحاربت تحت مظلتها هي، ولم تنهزم .. كان رجلًا غريبًا .. ويبدو لي أن كل مهمته كانت ترديد ما تلوكه ألسنة المسئولين؛ خطأ أو صوابًا، كل ما يهمه القبض .. لم يعرف حامد تلك الحقيقة عن الرجل، فشعر بالقهر حين تحدث معه .. ورأى أشرف أن الموتى ينبغي أن يشيعوا بالرحمة مهما كانت الأحوال .. وطوى أشرف الصحيفة، وألقى بها بعيدًا في تأفف، وواصل تنظيف سلاحه.

ما كانت الخالة "حياة مرعي" تدري أن بحثها عن الرقص الشرقي، والذي نشرته مجلة الجهاد في صدر صفحاتها بعد أن سمحت الرقابة بنشره،



سوف يحدث هذا الدوي الكبير .. لقد تأنقت المجلة في طريقة نشره، وزينته بالخطوط الجميلة والصور وجداول الإحصاء المقارنة، وكانت العناوين الفرعية مثيرة وهادرة: منها مثلًا:

- الرقص الشرقي وعصر الجواري الحديث:
- الرقيق الأبيض في شارع الهرم وكلوت بك والألفي ومحمد علي ..
- وصمة العار التي ما زالت على جبين المصريين؟
- الدعارة المشروعة باسم الفن؟
- حين تصبح الفتاة المصرية سلعة تباع وتشترى.
- الدين يسأل علماء الدين في مصر: لماذا تسكتون على الجريمة؟
- اضبط: الراقصات المشهورات يعرفن كل أسرار الدولة.

كان رد الفعل في الأوساط الفكرية والثقافية يمثل مزيجًا من الرؤى والأفكار السائدة على كافة المستويات، فتمخض عن دوي كبير .. كان رأي يقول بوجاهة ما ذهبت إليه الكاتبة، وآخر يرى أنها رجعية ومتخلفة، وثالث يقول بأنه ينبغي إعادة النظر فعلًا في هذه الظاهرة. أما الراقصات الشهيرات، فقد استخدمن كل نفوذهن - بل حظوتهن - في التنديد بهذه السيدة، ورميها بأقذع النعوت في كافة وسائل الإعلام المتاحة، وقالت إحداهن - وتزعم الصلاح والتقوى - إن الرقص الشرقي عبادة وصلاة.

لم تضق الأستاذة "حياة مرعي" بالآراء المعارضة، وحملة التنديد التي انقلبت إلى تشهير بها وبتاريخها الفكري .. ولكنها صممت على أن تسير في

طريقها بصبر وثبات؛ خاصة بعد أن وعد المسئولون برفع الرقابة تمامًا عن الصحف، وإعطاء مزيد من الحريات.

كانت ترجو فقط أن يتاح لها الكلام؛ حتى تستطيع الرد على كل ما يوجه إليها من انتقادات واسعة الانتشار .. ولم يفهم أحد - حتى هذه اللحظة ، أو يعرف لماذا كانت تحب الرقص الشرقي، ثم انقلبت ضده فجأة.

المهم أنها اليوم أصبحت أكثر شفافية من ذي قبل، وأصبح لها من الجرأة ما جعلها تتناول قضايا إسلامية أعمق، وألصق بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي تعيشه مصر .. لقد كسبت إلى جانبها في جولاتها - خاصة الأخيرة - مزيدًا من الاحترام والأنصار، إلا أن ما يؤرقها هو إصابة أشرف في القتال، وتصميمه غير العادي على العودة إلى الميدان .. إنها تحس أن ولدها قد تسامى وملك روحه، بعد أن فقد كثيرًا من الأشياء؛ ومن ثم فإن خوفها على مستقبله قد بدأ يتلاشى، وإن كانت إصابته تقطع قلبها .. وعنّ لها - في الآونة الراهنة - أن تقوم بجولة إلى القرية؛ لتنجز أمرًا مهمًّا، بل أملًا يراودها منذ زمن بعيد، وهو أن ترى لأشرف زوجًا يسكن إليها وتسعده بالطمأنينة والعطاء، خاصة بعد أن تعهدت بإنهاء حكاية هدى تمامًا.

في طريقها تناوبتها الأفكار والأشجان .. تجاذبتها الظنون والأماني .. ترنحت بين النشوة والقلق، ولكنها أصرت أن تنفذ رغبتها، وفي دار "زينب" كان لقاء.

قالت السيدة "حياة مرعي" لأم زينب:

- انتهى وقت الحزن.
- ولكنها (تشير إلى زينب) ما زالت حزينة عليه ..
- حامد كان طيبًا، وكان رجلًا، وكان ابني أيضًا ..
- عوضه الله خيرًا في شبابه.
- دوام الحال من المحال.

ساد الصمت بين السيدتين، واستجمعت الخالة "حياة" - كما كان يتحدث عنها حامد – شجاعتها، وقالت للمرأة الأخرى:

- الحق، أني أردت أن أحدثك بشيء، وأخشى أن يكون غير مناسب.
- تفضلي يا أم أشرف .. أنا تحت أمرك.

تمهلت .. ثم قالت:

- حامد مثل أشرف .. إنهما ولداي .. وقد ذهب ولد .. وأحزنني ذهابه، وأريد أن أفرح بالذي بقي.
- اعترى الأم قلق الخوف من المجهول، ونظرت إلى محدثتها في ترقب وتوجس أيضًا.
- أقصد أن أطلب يد زينب لأشرف.
- كان مطلبًا مباغتًا .. فوجئت المرأة، ولكنها حاولت أن ترد على السيدة حياة:
- هذا شأنها .. وأنتما حرتان.

تفاهمت المرأة مع الفتاة، وكانت مرارة أم زينب عظيمة حين افتقدت زوجها كرهًا، وضاع بين الفص وأنفاس الجوزة .. كانت تريده أن يكون ذا اعتبار في أمر ابنته، ولكنه كان حاضرًا غائبًا، وحين أفلحت السيدة حياة في إقناع الفتاة، وانتزعت موافقتها، لم يجدا سوى الجد العجوز يزفان له البشرى، وهو جالس أمام الجمل يلقمه غذاءه الأخضر، فتبسم الرجل وأضاءت جبهته، وقال كلمة واحدة:

- مبروك.

وبينما كانت القرية تتناقل الخبر، وتهنئ "أشرف" الذي حضر ليزور أسرة أمه وأسرة حامد، وأصدقاءه - كان حديث الناس عن "محمود المندلاوي" يطغى على خبر "زينب"، وخطبتها إلى "أشرف"، الذي أكدت له أمه نبأ الخطبة، فاغتبط لذلك كثيرًا، وأحس فرحة العمر.

حكمت المحكمة على "محمود المندلاوي" بالسجن ثلاث سنوات مع الشغل، ورد ما اغتصبه من أموال الجمعية؛ وذلك جزاء تصرفاته المشينة، واستيلائه على مخصصات لا يستحقها، والصرف في أوجه غير مشروعة، ولجهات لم تتسلم ما صرف لها .. وقد نال بعض الأعضاء والمشرف شيئًا من العقاب.

كان الناس يتحدثون عن القضية والمحامين، والسبب الذي كشف المندلاوي والآخرين، وكيف تطورت الأحداث .. كانوا يحللون، ويعيدون، ويزيدون، إلا أن خبر زواج زينب المرتقب من أشرف ذكرهم بحامد الشيمي وقصته الحزينة.

عندما شافت "أم حامد" زينب وأشرف معًا، توقع الناس أن يصيبها مكروه، ولكنها - يا عيني - زغردت لأول مرة، وأقبلت على الفتى والفتاة تقبلهما وتهنئهما، وتحدثهما عن حامد.

أخذت زينب أشرف، وتوجها إلى مقبرة حامد .. وروت الصبارة التي وضعتها على مقبرته، وراحا يتأملان معًا آية كريمة حفرت على طلاء المقبرة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر] ..

وعاد الاثنان إلى القرية، وكل منهما يدور في رأسه حلم: هي تحلم بالبيت السعيد، وهو يحلم به أيضًا وبالميدان وحديث الرعد ..

والله والصحراء والصمت المهيب وحامد الذي قضى.

وقال أشرف في نفسه:

- لقد بدأت الحياة تخضر .. وعلينا أن نواصل رعايتها بالإيمان والجهاد؛ حتى تظل خضراء إلى ما شاء الله.

تمت

***